تهافت المثقفين

القوى الناعمة المصرية.. المفقودة!

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ-٢٠١٨م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

اسم الكتاب	: تهافت المثقفين.. القوى الناعمة المصرية... المفقودة!
اسم المؤلف	: د. سـعيد اللاوندي
الغلاف	: عمرو الحو
الطبعة	: الأولى
رقم الإيداع	: ٢٢٩٣٠/ ٢٠١٧
الترقيم الدولي	: ٦-١٢٣-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

٨ عمارات الواحة – قطعة ١٠ – مدينة نصر - القاهرة
ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠
ghorabpublishing@hotmial.com

تهافت المثقفين

القوى الناعمة المصرية.. المفقودة!

د. سـعيد اللاوندي

دار غراب للنشر والتوزيع

مقدمة

.. أثارت الصرخة التي أطلقها الفيلسوف الفرنسي ديبريه والخاصة بموت المثقفين ردود فعل مُتباينة في الأوساط الثقافية الفرنسية (والأوربية) إلى حد أن البعض اعتبرها بحق ناقوس خطر لأن انقلاب مفكر من الوزن الثقيل (مثل ديبريه) واتهامه جميع المثقفين بالشعوذة والدجل، وتأكيده على أن دور المثقف قد اندثر إلى غير رجعة هو أمر جد خطير، ويبعث على القلق.. خصوصًا إذا وضعنا في الاعتبار أن هذا الانقلاب الثقافي يأتي من فرنسا التي تضع الثقافة دائمًا على رأس اهتماماتها.. وفي وجه الاتهامات التي كالها ريجبيس ديبريه للمثقفين وكانت من النوع الذي يقول عنه أهل المنطق: قاطع، مانع شامل...

هبت عاصفة احتجاج قوية قادها نفر من كبار رجال الفكر والثقافة والفلسفة تعترض على هذا الحكم القاسي الذي أطلقه ديبريه على الثقافة والمثقفين، من بينهم الفيلسوف اليهودي برنار هنري ليفي الذي لم يتردد في اتهام ديبريه بالشطط وقال إن المثقفين لم ولن يموتوا.. وها هم يستعدون منذ انهيار حائط برلين في عام ١٩٨٩ إلى احتلال مقاعدهم السابقة في مكان تسيير دفة الفكر والثقافة..

واعترف ليفي بأن هناك مشكلات كبيرة تقف في طريق هذه العودة إلا أن ثمة إصرارا على تجاوزها استنادًا إلى خبرة "أهل الحل والعقد الثقافي" في هذا الصراع بين الواقع المُعاش والمستقبل المأمول..

ويلفت ليفي الانتباه إلى أن المثقفين لم يكونوا غائبين عن الأحداث الدامية التي شهدتها مثلاً البوسنة، وكوسوفو والشيشان، وإنما عبروا – بصوت عال– عن رفضهم لماكينة الحرب التي سحقت الآلاف من المدنيين الأبرياء لا لشيء إلا لأنهم من أبناء هذه المناطق المنكوبة..

ويذكر أنه لولا موقف المثقفين ربما لما تدخل الاتحاد الأوروبي في البوسنة وكوسوفو لوقف مخطط الإبادة العرقية الذي كان خرج من عقاله..

.. وينسج على نفس المنوال مفكر آخر هو روني برومان من معهد الدراسات السياسية في باريس فيقول: رغم أنني لست ضد الحرب بشكل عام، وكنت كتبت موافقا على التدخل في كوسوفو، وأفغانستان، إلا أنني أرى أن الحرب في العراق هي حرب ظالمة فالعالم أجمع يعرف أن الاتهامات الموجهة للعراق لا أساس لها.. فضلاً أن هناك أكثر من ٣٠ دولة تملك أسلحة دمار شامل إلا أن أحدًا لم يوجه إليها اتهاما.. وها هي إسرائيل تنطبق عليها معايير الاتهامات الأمريكية لأنها تملك ترسانة من أسلحة الدمار الجماعي ورغم ذلك لم يهتز لواشنطن جفن!

وأضاف يقول: ولم تردد في التحذير من هذا الحال، وذكرنا أن كراهية أمريكا سوف تملأ قلوب العرب والمسلمين وشككنا في أن العراقيين سوف يستقبلون القوات الأمريكية بالورود والرياحين.. لكن لم يلتفت أحد لما كتبنا.. وأيا كان الأمر، لا أعتقد أن دور المثقف قد اندثر كما يقول ديبريه، ولكنه قائم وإن حكمته ظروف واعتبارات كثيرة..

.. ومن جانبه أكد المفكر إيمانويل تود صاحب كتاب "ما بعد الإمبراطورية" أن المثقفين لازالوا يدقون نواقيس الخطر، ويحذرون من هيمنة أمريكا العالم لأنها بعد العجز الذي حققته في ميزان مدفوعاتها وهو مبلغ ٤٥٠ مليار دولار، أصبحت كالكلب المسعور الذي يريد أن يشعل حروب هنا وهناك، علّه يتخلص من ورطته. إنها كارثة إمبريالية حقيقية ينبغي أن تواجهها أوروبا بطرح البديل أو على الأقل بتقديم تصور خاص بتعديل مواقف أمريكا الصادمة لحلفائها والعالم..

ولعل المفكر جورج بالانديه (من الكوليدج دي فرانس) هو الوحيد الذي اقترب من رأي ديبريه لكنه حاول أن يبرر صمت (أو موت) المثقفين فذكر أنهم وجدوا أنفسهم في حيرة من أمرهم عندما أصرت أمريكا على شن حربها ضد العراق.. وقال إنه لا يعرف شخصيًا كيف يتسنى لأمريكا أن تحقق انتصارًا تكنولوجيا على العراق، ثم تقوم بإنشاء الديمقراطية هناك.. مع أن الديمقراطية الحقة تستدعي أن تقيم أمريكا سياسة قبل أن تشعل حربًا.

واعترف جورج بالانديه بأن موقف المثقفين كان حادًا وصادمًا إبان أحداث البوسنة، والشيشان، والسبب يرجع إلى اختلاف طبيعة الأشياء، وليس على ضعف في النفوس، أو تراجع المثقفين عن الاضطلاع بمسئولياتهم..

.. وسجل الكاتب البريطاني ميلان راي موقفه فقال إن الاتهام لا ينبغي أن يصوب إلى صدر المثقفين وإنما إلى صدر الولايات المتحدة التي كذبت على العالم، وأعلنت أنها تبغي إقامة ديموقراطية في العراق مع أن

السبب الحقيقي هو استبدال نظام صدام حسين بنظام جديد يكون "مُطيعًا وتابعًا" للبيت الأبيض...

.. ورغم ذلك رجح تيار فكري فرنسي معاصر طروحات ديبريه فكتب إيريك كونان في مجلة الإكسبريس يقول: ليس أمامنا سوى أن نصدق ريجبييس ديبريه، فالمثقفون على الرغم من محاولاتهم الدائمة لإثبات وجودهم إلا أنهم على المحك العملي لا أثر لهم. صحيح إن بعضهم سعى إلى تقليد الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر الذي كان يسير في المظاهرات تضامنا مع مطالب الجماهير، وصحيح إن نفرًا منهم سافر إلى الجزائر وكوسوفو، والبوسنة، والشيشيان لحث الدول الأوروبية على التدخل وإنقاذ شعوب هذه الدول من الهلاك، إلا أن مجمل هذه المواقف ليست إلا أشبه بالحركات المتشنجة التي قد نكشف - عفويا- عن شخص مريض ينتظر أن يأتيه الموت في أية لحظة.

ويؤكد إيريك كونان أن ديبريه له كل الحق في أن يدعونا جميعا إلى التحرر من المثقفين الذين لا عمل لهم سوى تضييع الوقت وتزييف الحقائق..

أيًا كان الأمر لقد كانت صرخة ديبريه أشبه بالحجر الذي ألقى به من علٍ في بحيرة الثقافة الفرنسية، فحركت العقول الراكدة لتأخذ مواقف بين مؤيد ومعارض ومتحفظ، لكن الجميع ينطلق من حقيقة واحدة هي أن الخطاب الثقافي في حاجة على إعادة نظر سواء في المنطلقات أو الأهداف..

فصل أول

القوى الناعمة المصرية.. المفقودة!

.. لكي نستعيد ريادتنا الثقافية

روت لي السيدة ليلى شهيد – سفيرة فلسطين السابقة في باريس – أنها عندما ربط كيوبيد "بيخوطه الحريرية" قلبها بقلب زوجها الناقد المغربي الكبير محمد برادة، كان ذلك في مصر منذ سنوات خلت، وداخل أسوار جامعة القاهرة، وذكرت أنه لصعوبة التحدث بينهما بسبب لهجتها المشرقية ولهجة زوجها المغربية، كانت اللهجة المصرية هي الملاذ الذي لجأوا إليه باعتبار أنها اللهجة التي يعرفها القاصي والداني في وطننا العربي الكبير.

وأذكر أني كنت في زيارة عمل في تونس وبعد كلام وسلام مع سائق التاكسي طلب مني طلبا (رأيته غريبا في ذلك الوقت) وهو أن أحمل له سلامًا خاصا إلى الفنان إسماعيل ياسين، الذي تبين لي أن الرجل لم يكن يعرف أنه قد مات وشبع موتا.. وحسبه أنه يستمتع بأدائه السينمائي الرائع، وقفشاته العفوية التي يحبها الكبار قبل الصغار.

اعترف أن هاتين الحادثتين قد قفزتا إلى ذهني عندما وجدتني أبحث عن إجابة عن سؤال يتعلق بـ"الريادة المصرية" التي ملّ الكثيرون الحديث عنها، وبرغم ذلك يبدو أنها أصبحت اليوم أشبه بالعنقاء التي لا وجود لها.

والريادة التي أعنيها هنا هي الريادة الثقافية التي حملتها اللهجة المصرية، والسينما المصرية إلى كل شبر في أرجاء الوطن العربي الكبير.. والتي باتت أثرا بعد عين (أو هكذا يبدو ليّ).. فمصر كانت في السابق قبلة الطلاب الثقافية التي يأتون إليها من كل فج عميق يخالطون أهلها، ويعشقون أجواءها ويتنسمون هواءها ويتكلمون لهجتها، حتى يكاد يصعب تمييزهم عن إخوانهم المصريين.

ولقد اعترف الأديب المغربي (الذي يعيش في باريس) الطاهر بن جلون بهذه الحقيقة عندما قال لي ذات مرة في مكتبه الواقع في شارع "سانجرمان" القريب من جامعة السوربون: إن في حياة الأدباء العرب محطة أساسية هي محطة مصر والارتحال إليها أمر لا مناص منه.. فإما أن نذهب إلى هناك لنخالط أهلها، ونعيش ذات الأجواء التي يعيشها أدباؤها، وإما أن نرحل إليها عبر الورق والكتابات.

وأضاف شارحا رسما كاريكاتوريا نشرته إحدى الصحف العربية مفاده أن الأديبين الكبيرين نجيب محفوظ ويوسف إدريس كانا يركبان سيارة تجري مُسرعة على الطريق، ثم فجأة ينادي نجيب محفوظ على السائق بعد أن رمق الطاهر بن جلون واقفا على قارعة الطريق، وقال: توقف ليركب معنا هذا الرجل، إنه من أولاد حارتنا!!

اليوم ببراءة شديدة أتساءل: أين الريادة المصرية يا قوم؟.. في السابق كانت "محطة مصر" أساسية في حياة الأديب وطلاب الثقافة العربية.. فلماذا تغير الحال؟

قديمًا كان طلاب المعرفة العرب يعرفون جيدا طه حسين (عميد الأدب العربي) وعباس العقاد (عملاق الفكر العربي) وتوفيق الحكيم (عميد المسرح العربي) وبقية الرعيل الذي قاد حركة التنوير في مصر والوطن العربي.

لكن اليوم تبدل الحال وأصبح عسيرًا أن نجد بين الشباب العربي من يعرف هؤلاء أو من يحفظ أشعار حافظ ابراهيم أو أحمد شوقي.. والسبب أن هؤلاء المحدثين من الشباب العربي طووا صفحة مصر في حياتهم الثقافية والفكرية منذ اللحظة التي ولوا فيها وجوههم شطر أوروبا وأمريكا.. وأصبح الطالب منهم يعرف فولتير ويجهل في الوقت نفسه المنفلوطي، ويقرا للأمريكي توماس فريدمان ولا يكترث بما يقوله أو يكتبه محمد حسنين هيكل.

يبدو لي يا قوم: أن مصر قد تنازلت عن موقع الريادة الثقافية.. والدليل على ذلك أن المغرب تفوقت بمهرجانها السينمائي الذي لم يزد عمره على خمس سنوات على مهرجان القاهرة السينمائي الذي يقترب عمره من الأربعين عاما.. أما دبي فلقد تربعت بمهرجانها الثاني على المهرجانين معا.. وهكذا يبدو أن مصر لم تعد تستحق اللقب الذي كان لها طوال السنوات الماضية، وهو: هوليوود العرب!.. ولاشك أن

الدراما السورية والتركية التي جذبت المشاهدين العرب (من المشرق والمغرب والشرق الأوسط) هي البرهان الساطع.

وإذا تذكرنا التقلص الغريب الذي شهده معرض القاهرة للكتاب سواء في ندواته أو لقاءاته او معروضاته لتبين لنا ربما بما لا يدع مجالا للشك أن مصر يبدو أنها خلعت تاج الريادة عن طيب خاطر، أو لعلها خلعته عنوة، لأن الزمن أصبح غير الزمن، والطموحات التي كانت سامقة ذات يوم، أصبحت في متناول الأيدي!!

وبرغم ذلك، إن أعجب ما أعجب له هو أن يتحدث نفر عن غزو ثقافي مارسته مصر يوما على شقيقاتها العربيات! سواء باللهجة المصرية المحببة إلى نفوس الجميع أو بأغانيها وأفلامها التي ملأت الساحة الثقافية وممثليها وممثلاتها الذين كانت تتآلف القلوب، كل القلوب حولهم.. ماذا جرى لمصر الثقافية؟

سؤال بريء أطرحه بمرارة، بعد أن حدثني مستشرق فرنسي شاب يقول: إن الأدب المغاربي المكتوب بالفرنسية أضحى البوابة الحقيقية التي تؤدي باتجاه الأدب العربي.. وطه حسين الذي كانت بعض كتبه تدرس في معهد اللغات والحضارات الشرقية بباريس، الماضي عليه الفرنسيون بدراسة المغربي محمد عزيز الحبابي، ومحمد عابد الجابري.

أما الشعراء العرب الذين يعرفهم الفرنسيون فياتي على رأسهم الشاعر السوري أدونيس وغاب أحمد عبد المعطي حجازي (زميله في

الاغتراب الباريسي ردحًا من الزمن) عن الساحة الشعرية والأدبية كما يعرفها طلاب جامعة السوربون.

إني أبحث عن الريادة الثقافية المصرية.. فمن يدلنى على الطريق؟.. وهل يتعين أن أحمل مصباح ديوجين في جولاتي اليائسة؟

أين مصر الثقافية التي ملأت الدنيا وشغلت الناس؟

ولا أريد كلاما إنشائيا لمن يريد أن يجيبني وإنما، أريد وقائع وتواريخ.. نعم مصر كانت رائدة في السابق، أما اليوم فلا ريادة ولا يحزنون!!

والمؤلم أن دولا عربية كثيرة أصبحت يافعة ومنتجة بغزارة وتقدمت أشواطا في طريق الإبداع، بينما توقفت الحركة في مصرنا أو لعلها تباطأت ونسينا القول المأثور الذي يقول: من لا يتقدم يتراجع إلى الوراء!

لست في حاجة إلى أن يزايد أحد على مصريتي وحبي لبلدي، لكن لا يصح إلا الصحيح، والنظرة الموضوعية التي تنطلق من الوقائع وتستند إلى الأدلة والبراهين، تؤكد أن الريادة الثقافية المصرية انتهى زمانها وأفل نجمها أو كاد، وبدلا من أن يستشيط البعض غضبا مما ذكرت، فلنشغل جميعا أنفسنا بالبحث عن الأسباب.. ولا يجب أن نستسلم لهذا المخدر النرجسي الذي يرانا: أفضل الناس، وأسبق الناس!

كانت جامعة القاهرة هي الجامعة الأولى في الوطن العربي، ولم تعد كذلك اليوم، وكانت الصحف المصرية هي الأعرق، وكانت الإذاعة

المصرية هي الوحيدة التي يسمعها العرب من الخليج الهـادر إلى المحـيط الهادي، واليوم اشتعلت سماوات العرب بالميديا من كـل لـون وصـنف وانتشرت الجامعات كالفطريات في أرض العرب.. وانفتحـت الحـدود باتجاه المتوسط وكثرت مواسم الهجرة إلى الشمال وكان طبيعيـا أن يـذبل بستان الريادة.. فهل معي الحق أم جانبني الصواب؟

البكاء على الثقافة المفقودة

مثلما ننعى أحوالنا الثقافية ونتساءل في حيرة لماذا لم يعد يظهر في مصر المحروسة رواد ومفكرون بحجم قامات الطهطاوي، ومحمد عبده، والعقاد وطه حسين.. ولماذا أقفرت أرض الكنانة. وتركتنا نبكي على اللبن المسكوب؟ فالشيء نفسه – ويالللعجب – وجدته على ألسنة أهل اليونان الذين يعبرون عن استيائهم لأن أرض الفلسفة التي أنجبت ثالوث الحكمة سقراط وأفلاطون وأرسطو، قد أصابها العقم ولم تقدم لنا فيلسوفًا بحجم هذا الثالوث الذي طبقت شهرته الآفاق وتعلم الحكمة على أيديه ملايين البشر طوال أكثر من ألفي عام.

وبدا لي – بعد تأمل طويل – أن هذه الشكوى ليست حكرا على وطن أو جنس أو نوع وإنما هي شكوى عامة، فأبناء الفرنجة ينعون – بدورهم- حظهم العاثر ويرون أن لغة فولتير قد نال منها التصحر

الثقافي، وبعد أن لمعت في سمائها أسماء مثل بلزاك وفيكتور هوجو، وأوجست كونت وسارتر، لم تظهر قامة كبرى يلتف الدارسون حولها كما كان يحدث في الأحقاب الزمنية البعيدة.. إذن نحن – جميعا- أمام انحسار ثقافي وفكري (عالمي).. سيقودنا حتما إلى مواجهة من نوع خاص تخرج الشعوب منها صفر اليدين!

والمؤلم أن الثقافة –بمعناها العام والواسع – قد تقلبت بها الأيام، وبعد أن كان اليونانيون الأقدمون يرون أن معرفة الثقافة اليونانية هو شرط أساسي لاكتساب الجنسية اليونانية أضحت الثقافة هامشية في عالم اليوم، وكأنها ترف زائد عن الحاجة!

وإذا وضعنا في الاعتبار أن عصر العولمة بأدبياته المادية والبراجماتية الصارخة قد قزم الثقافة والمثقفين وأتى على مساحتها ومكانتها في سلم أولويات البشر، لتأكد لنا – بما لا يدع مجالاً للشك – أن هذه المرحلة من عمر الإنسانية لا مكان فيها لمثقف أو مفكر أو قائد رأي! وهو ما يجعلنا نواجه مصيرا حتميا هو أن عالم الغد سيكون خاليا من جميع أشكال الثقافة.

ومما يزيد الطين بلة أن مثقف اليوم (رغم ضآلة حجمه وتأثيره) قد فقد دوره التنويري أو التحذيري، والتحم – عن عمد – بالنخبة الحاكمة – واقتصر دوره على التبرير أو الدفاع ونسي أو لعله تناسى أن مهمته هي إزعاج الجميع وليس طمأنتهم والربت على أكتافهم!

ولأننا لسنا وحدنا في مواجهة ظاهرة التصحر الثقافي التي نعاني منها اليوم في مصر والمنطقة العربية برمتها؛ فسوف يكون مفيدا أن نتأمل التجربة الفرنسية التي تتحدث الأرقام عن هبوط مفاجئ في ممارساتها الثقافية. فالكتاب الذي كان الفرنسيون يحتفون به في الماضي انخفضت مبيعاته في السنوات الماضية بنسبة تصل إلى ٢٠٪ وكذلك الحال مع الأسطوانات الممغنطة والفيديو، والموسيقى بل أن زيارة المتاحف الكبرى لم تعد تحظى بنفس الدرجة من الاهتمام لدى المواطن العادي الذي كان يقال عنه أنه يحرص على أن يزور متحف اللوفر. ويقف مرة كل شهر متعجبًا أمام لوحة الجوكوندا (الموناليزا) التي أبدعتها ريشة الفنان الإيطالى ليوناردو دافنشي.. نعم أن وجه فرنسا الثقافي بدأ تعتريه متغيرات جذرية، ولم يعد يخفى صناع الثقافة الفرانكفورنية فزعهم من الخسائر التي تنتظرهم، والتي قد تكون فادحة خصوصا إذا علمنا أن الميزانية السنوية لصناعة الثقافة في فرنسا تبلغ ١٥ مليار يورو.

.. إذن المشكلة عامة، ويبدو أنها تجاوزت الخطوط الحمراء، وباتت تؤرق الجميع في الصحو والنوم وكأنها الكوابيس!

.. وقبل نحو ربع قرن تحدث فيلسوف فرنسي يدعى جان فرنسوا ليوتار في كتاب بعنوان: "قبر لكل مثقف" عن نهاية دور المثقفين.. ووصف النقاد الكتاب بأنه شهادة وفاة حقيقية لكل المشتغلين بالثقافة!

.. وكان مفكر آخر هو ريمون أرون قد أصدر كتابا بعنوان"أفيون المثقفين" أشار فيه إلى أن المثقفين قد ضلوا الطريق، ويأتوا يقودون

الناس إلى المجهول، وحالهم أشبه بحال الدجالين الذين يروجون الأكاذيب والبطولات الزائفة.

ولعل المفكر الفرنسي ريجيس ديبريه (صديق جيفارا) كان الأصدق عندما وصف المثقفين في نوبة قاسية من نوبات غضبه قائلا: أنهم قوم ضرب الشيب مفرقهم وفقدوا دورهم التنويري النبيل وأصبحوا أشبه بقلة من البشر فقدت الذاكرة فلا هدف لهم، ولا معنى لوجودهم.

• على أية حال هي صرخات تنبئ عن أن الثقافة تعيش مأزقًا تاريخيا، وتشعر بأنها (غريبة) في عالم لم يعد يلتفت إليها.

أما المثقفون أو المشتغلون بالثقافة، فكان عليهم أحد أمرين، إما أن يتقوقعوا على ذواتهم وينعزلوا عن باقي المجتمع (فيكون حالهم أشبه بحال بقعة الزيت التي تطفو فوق الماء على حد تعبير ذكر نجيب محفوظ) وإما أن يتنكروا لدورهم التنويري ويتخلوا عن رسالتهم كأصحاب رأي وبصيرة ويسيروا معصوبي العينين وراء الآخرين الذين يقودون القطيع.. مبررين هذا السلوك مرة، ومدافعين عنه مرات.

.. وبين هذا الأمر أو ذاك فقدت الثقافة بريقها وتنكرت لرسالتها واكتفت بأن تكون صناعة، مثل صناعة الدواجن أو الأحذية (لا فرق).

الغزو الثقافي المصري للعالم العربي
حقائق وأوهام

.. بقليل من الصراحة (والشفافية) يجب أن نعترف بأن ثمة إشكالية ثقافية في علاقة مصر بشقيقاتها العربيات تحتاج منا (جميعا) إلى أن نفهم أسبابها ونسبر أغوارها خصوصا بعد أن بدأت تتبدى في "مواقف وسلوكيات" كثيرة إلى حد أن البعض ارتاح إلى فكرة أن مصر مارست (فعلا لا قولا) غزوًا ثقافيًا على الدول العربية امتد لعقود وعقود..!

فرضت –بمقتضاه– رؤاها الأدبية والحضارية والفنية على الأجيال العربية المتعاقبة وكانت العلاقة بين مصر والدول العربية تسير في اتجاه واحد (من أعلى إلى أسفل أو من مصر إلى هذه الدول جميعًا) حتى أضحى الجميع ينظرون بعيون مصر: فالذوق الفني هو بالضرورة

الذوق المصري، والأدباء المبرزون مصريون، والرواية مصرية.. وكذلك الحال مع السينما والغناء.. بل إن تاريخ مصر وثورة ١٩ تحفظها الأجيال العربية عن ظهر قلب عبر ثلاثية نجيب محفوظ. أما ثورة يوليو وعبد الناصر (وإنجازاتها) فتشكل جزءا أصيلا في التكوين الفكري والثقافي للشعوب العربية ناهيك عن نسائم الطرب الكلثومي الذي تمايلت على إيقاعاته كل القلوب العربية العاشقة.. ولقد بدأت ملامح هذه "الإشكالية" تتخلق منذ اللحظة التي وعت فيها بعض الرموز العربية أن للمصريين قلوبا ولهم أيضا عقول.. ومثلما عايشوا طويلا إنتاج العقول المصرية في مختلف الميادين – يتعين على المصريين أن يعايشوا ما تنتجه حاليا العقول العربية..

ويحضرني في هذا المقام – مثالان: الأول صاحبه هو المفكر اللبناني غسان سلامة الذي حدثني عن أن المؤلفات العربية في القانون والسياسية وعلوم الاقتصاد والاجتماع لا تخلو من مراجع مصرية.

المفكر اللبناني غسان سلامة الذي حدثني عن أن المؤلفات العربية في القانون والسياسة وعلوم الاقتصاد والاجتماع لا تخلو من مراجع مصرية (إلى جانب المراجع الأجنبية بالطبع). بل أن الإنتاج المصري في مجالات التأليف المختلفة يحتل مساحة كبيرة ومتميزة ويحسب لها الباحثون العرب ألف حساب..

المفارقة أن الإنتاج العربي يكاد يكون غائبا بشكل كامل في حركة التأليف المصرية. وإن كنت في شك مما أقول – هكذا يستطرد د. غسان

سلامة – فلنفتح معا كتابا مصريا في القانون أو السياسة، لتكتشف معي أن هذه الملاحظة صحيحة مائة في المائة.. فلا يستعين باحث مصري واحد بمراجع لمؤلفين عربا إلا بالكاد..!

.. المثال الثاني جاءني هذه المرة من مخرج جزائري يعيش في باريس.. يقول: لقد فرضت علينا مصر إنتاجها السينمائي طوال عشرات السنين – فتعلمنا من – بلاشك- كما استمتعنا به. وكانت اللهجة المصرية عسيرة علينا، فتدربنا عليها حتى أتقناها كأهلها.. ثم يطرح المخرج الجزائري السؤال التالي في شيء من سخط.

• لماذا لا يشاهد المصريون إنتاجنا السينمائي في المغرب العربي.. وإلى متى لا تلتف دور السينما المصرية إلى أفلامنا..

ثم يستطرد قائلاً: إذا كانت لهجتنا عصية عليكم فليس هناك ما يمنع من دبلجتها كما تفعلون مع الأفلام الأمريكية والفرنسية!

.. هذان المثالان الذي جاء أولهما من قلب محب هو قلب وزير الثقافة اللبناني السابق (غسان سلامة)، وثانيهما من قلب عربي غاضب (وله العذر على كل حال) – إنما يرسمان ملمحا حقيقيا لأزمة قائمة بالفعل تتعلق بدور مصر الثقافي في العالم العربي.. وظني أن التعامل معها بطريقة (الفتنة نائمة لعن الله من يوقظها) هو تبسيط مخل وتأجيل غير مبرر لإشكالية تطل برأسها بإلحاح منذ زمن دون أن يكلف أحدنا نفسه بأمر مناقشتها. هذه الإشكالية يلخصها السؤال الصعب التالي:

• هل خطط المصريون حقا لغزو ثقافي عبر المد الأدبي والفكري الذي عم المنطقة العربية من الخليج إلى المحيط؟

.. هل كانوا حقا غزاة يفرضون رسالتهم الثقافية (بالقوة) شأن كل الغزاة الذين حدثنا عنهم التاريخ؟

.. والسؤال الأهم: هل كانت لديهم حقا (رسالة ثقافية – استعمارية) يحرصون على تكريسها ونشرها بين الشعوب العربية؟

أم أن الأمر لا يعدو أن يكون درجة من درجات الحساسية لدى بعض الأفراد الذين توهموا لأسباب سياسية في مرحلة بعينها – أن مصر تمارس استعمارا ثقافيا (عبر الصوت والصورة والكتاب) على جيرانها العرب؟

.. أذكر – والله على ما أقول شهيد – أني طرحت هذه الأسئلة على ثلاثة من المفكرين العرب رحل أولهم وهو الفيلسوف المغربي محمد عزيز الحبابي الذي رفض الفكرة شكلاً وموضوعًا وقال عن مصر العربية المسلمة لم تمارس في يوم من الأيام استعمارا أو غزوا، وإنما هي كانت سباقة في مجال المعارف وكان طبيعيا أن يصل إنتاجها إلى كل الناطقين بالضاد.. وأمام غزرة هذا الإنتاج – هكذا قال الرجل – وتنوعه وتعطش المنطقة العربية إليه كان علينا أن ننسى أن الإمام محمد عبده أو طه حسين أو العقاد أو الحكيم (مصريون).. فهم عرب يكتبون باللغة العربية ويتحدثون عن قضايا تهم كل العرب.

واستطرد الحبابي (في حديثه معي) يقول: قد تسجل بعض المآخذ أو الملاحظات على زملائنا وأصدقائنا في مصر – ولكنها مآخذ ينطبق عليها القول بأن "البوسة مثل القرصة" لا تعني سوى المحبة والمودة ولا هدف لها سوى لفت الانتباه!

المفكر الثاني هو الجزائري محمد أركون الذي استهجن كل من تسول له نفسه أن يفكر في غزو مصري (ثقافي) للعالم العربي، وقال: ريادة مصر في مجالات التأليف والتمثيل والغناء لا ينكرها إلا جاحد.. وكان طبيعيا أن تتحول – في مرحلة سابقة – إلى قبلة يتطلع إليها كل الراغبين في التزود من العلم – فحركة التأليف والترجمة والإبداع جعلت مصر لفترات طويلة أشبه بالواحة الغناء وسط صحراء مترامية.. وبالتالي فالحديث عن غزو مصري هو حديث لا معنى له!.. لأن خير الواحة لابد أن يتسرب إلى الأماكن المحيطة.

.. والشيء نفسه أكده المفكر الثالث وهو (عالم الاجتماع السياسي السوري برهان غليون الذي رأى أن هذه الإشكالية لا وجود لها إلا في بعض الأذهان المريضة، ولقد روج لها نفر من الانعزاليين الذين يريدون فصم عرى الأمة العربية، ويتهمون مصر أو غيرها من الدول بما ليس فيها.. والصحيح أن مصر شاءت أقدارها التاريخية والجغرافية أن تقطع أشواطا في اتجاهات مختلفة وكان حصاد هذه الحركة وفيرا (ثقافيا وإبداعيا).. وسار كالنهر يروي البلاد الأخرى التي استفادت واستوعبت ثم أبدعت.

• لكن يبقى أن البعض يرى أن مصر استعمرت العقول العربية ردحا من الزمن مرة بدعوى "الريادة" ومرة أخرى بدعوى أنها "الشقيقة الكبرى".

.. وقد آن أوان التحرر منها..!

دموع وابتسامات ساخرة

شاءت أقداري أن أكون من جيل نشأ منذ نعومة أظفاره على أن يجد اسم بلده يأتي دائمًا في رأس القائمة سواء كانت ثقافية أو فكرية أو أدبية أو رياضية.

وأذكر أني عندما ذهبت إلى باريس منذ أكثر من ربع قرن وعندما لم أعثر على اسم مصر ضمن الدول العربية المؤسسة – بالتعاون مع فرنسا – لمعهد العالم العربي الذي يقف في شموخ على شاطئ نهر السين في العاصمة الفرنسية.. أقول لقد شعرت بخنجر يخترق صدري.. ولم أكن أعرف أن ذلك سوف يكون أشبه بالأمر المألوف حتى أنني في ظروف مشابهة كانت عيناي تجري بسرعة البرق على قوائم أسماء الدول أبحث عن اسم بلدي.

وكم كان يشق عليّ ويؤلمني أن أجد الاسم بين الأسماء وليس على رأسها كما اعتدت.. أسوق هذه الانطباعات وفي ذهني محاولات البعض تقزيم مصر ودورها.

لابد أن نعترف – في شجاعة – أن الريادة المصرية التي كانت في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي قد أفل نجمها أو كاد.

وأن مراكز إشعاعات الثقافة العربية قد تعددت وتنوعت ولم تعد حكرًا على القاهرة أو بيروت كما كانت.

لكن الصحيح أيضًا أن هذا الحال قد تسببت مصر فيه، بمعنى أننا لسنا أبرياء.. وليس من شك في أن الكثيرين – وليس فقط البعض – يسعون اليوم إلى التركيز على هامشية مصر ثقافيًا وفكريًا في الآونة الأخيرة، فهوليود العرب قد ولى زمانها، وكذلك قبلة العرب الفنية لم يتبق منها إلا القليل.. والشجاعة – كما أسلفت – تفرض أن نعترف بأخطائنا.

فالتاريخ لا يعرف الجمود، كما أنه.. عندما سيصدر أحكامه – فلن يكون رحيمًا بأحد.

بعض الدول تسعى – منذ فترة – لمنافسة أو فلنقل لمزاحمة مصر في ريادتها، وقد تحقق لها شيء من هذا، وبعضها الآخر جند طاقاته لمحاولة إطفاء الإشعاعات المصرية. ولم يفلح، لكن المؤكد أن موقع الريادة قد تزحزح كثيرًا، وارتفعت مواقع أخرى، ولمع بريق مراكز مُغايرة،

والواجب يحتم الانـشغال بهـذا الحـال ثقافيًـا وسياسـيًا إذ لا يعقـل أن نصعد في قرون إلى أعلى.. ثم في بضع سنوات نهبط كالطوبة. وقد قذف بها من عل.

"مصر الثقافية" تمر بمأزق "وجودي" ليس بوسع أحد إنكـاره أو تجاهله ولم يعد يفيدنا كثـيرًا الارتكـاز إلى القامـات الكـبرى في الأدب، والرواية والشعر، والفكر المعاصر، لـيس فقـط لأن قامـات أخـرى (في مناطق مجاورة) بدأت تظهر وتلمع وتشق طريقها في عنان السماء، ولكن أيضًا لن أرض الكنانة تبدو وكأنها مقفرة أو تكاد.

الريادة المصرية في مأزق، وقد تكالبت عليهـا القـوارض مـن كـل حدب وصوب (خصوصًا قوارض الداخل) فهل من مغيث!!

عندما يسيطر الغوغائيون على عقل الأمة!

وجهت مصر عبر قطاع التليفزيون دعوة للمفكر المغربي الكبير محمد عابد الجابري للمشاركة في الندوات الفكرية التي يقيمها على هامش مهرجان الإذاعة والتليفزيون..

وعلمت فيما بعد أن الجابري قد اعتذر بدعوى انشغاله في نفس التوقيت في نشاط فكري آخر.. ولقد ذكرتني هذه الواقعة بمحاولة أخرى كان صاحبها هو الناقد سامي خشبة عندما كلفني قبل سنوات بأن أوجه الدعوة باسم وزارة الثقافة إلى شيخ المستشرقين الفرنسيين جاك بيرك للمشاركة في احتفالية تنظمها هيئة قصور الثقافة للأستاذ الإمام محمد عبده الذي نعلم جيدا أن جاك بيرك يكن له تقديرا من نوع رفيع.

وأدهشني أن الرجل الذي التقيته آنذاك في باريس قد أثنى على هذه الاحتفالية التي تستنهض عقل الأمة في ذكرى هذا المفكر الإسلامي

"العبقري" – يقصد محمد عبده – الذي لم يمهله العمر الإنساني المحدود لكي يقول كل ما عنده من فكر مُستنير.. ثم اعتذر في أعقاب هذه الثناء مباشرة لالتزامه ببعض الكتابات والمشاركات الأكاديمية ولأنني لم أرتح كثيرا لمبرراته أو مزاعمه عدت أسأله سؤال صديق لصديق. فجاءت إجابته مختلفة تماما.

قال الرجل "جاك بيرك" أنني أخشى أن يتحرش بي المتحرشون وهم كثر. وقد يصيبني ذلك بأذى نفسي وجسدي خصوصا أنني – هكذا قال – رجل طاعن في السن وتجاوزت الثمانين من عمري!

وكانت سيدة جامعية تتعاطى الفن والرسم التشكيلي تثير لغطًا في الأوساط الأكاديمية المصرية وتتهم جاك بيرك بأفظع الاتهامات وتنال من سمعته ونزاهته العلمية.

وشرح لي جاك بيرك آنذاك أنه يخشى أن تسلط هذه السيدة ومن يدور في فلكها أحد الأميين أوالمتعصبين لكي يترصد جاك بيرك في حركاته أثناء مشاركته في هذا المؤتمر.

ومعلوم أن جاك بيرك كان أصدر قبل ذلك ترجمة فرنسية لمعاني القرآن الكريم اعتبرتها هذه السيدة ترجمة مشوهة تعمد جاك بيرك أفسادها ليضر الإسلام والمسلمين!!

أريد أن أقول إن موقف محمد عابد الجابري قد لا يختلف عن موقف جاك بيرك يجعل أن ارتباط الجابري بالتزامات فكرية قد لا

يكون أكثر من ذريعة لا أساس لها يخفي بها خوفه من عاقبة المجيء إلى مصر وتحرش بعض أنصار (الثقافة السماعية) به.

وهذه الثقافة السماعية كان أشار إليها جاك بيرك نفسه عندما قال لا يجب أن نستهين بهؤلاء الذين لا يستقون معارفهم ومعلوماتهم إلا عبر ما يدخل إلى آذانهم بشكل عارض أو من خلال واعظ أو مرشد ديني واذكر أن جاك بيرك كان استشهد على صدق ظنه بواقعة محاولة اغتيال الروائي المصري العالمي نجيب محفوظ حيث أجاب الشخص المتهم في هذه الجريمة. ردا على سؤال: هل قرات رواية أولاد حارتنا. بقوله: لم أقراها وإنما عرفت من صديق لي أنه أهان فيها الذات الإلهية وحقر من شأن الأنبياء والمرسلين!

بمعنى آخر أن الثقافة السماعية أصبحت خطرا داهما ويدعم ذلك ان استطلاعا للرأي أكد أن كل من اصطف إلى جانب الداعين إلى إقامة الحد على محمد عابد الجابري لم يقرأ المقالة التي أثارت هذه القضية وإنما اكتفى بما سمع عنها.

وللإنصاف يجب أن نذكر أن الكاتب الشهير فرج فوده قد دفع حياته ثمنا لهذه الثقافة السماعية التي ترجمها استطلاع للرأي يكشف أن ٧٠٪ رأوا أنه كافر عبر ما سمعوه من الآخرين بينما قال ٣٠٪ أن أمره لا يعنيهم لا من قريب أو بعيد!

هذه النقطة تحديدًا تدفعنا إلى القول بأننا بالفعل نعيش ردة ثقافية محزنة فلقد ولى الزمن الذي تمكن فيه كاتب يدعى إسماعيل أدهم أن

يضع كتابا بعنوان لماذا أنـا ملحـدًا؟ دون أن يمـسه أحـد بـسوء.. وإنـما اختار العشرات أن يردوا عليه بمؤلفات تدحض أفكاره التـي دونهـا في هذا الكتاب.

كما ولى الزمن الذي كان الكاتب أو المفكر في بلادنا يمتشق كلـمات فولتير "كالسيف" التي تقول: "قد اختلف معك في الرأي لكننـي عـلى استعداد أن أضحي بحياتي ثمنًا لحقك في الدفاع عن رأيك".

لكنه ما أن يتبوأ مقعدًا في جريدة أو مجلة أو هيئة حكومية "ثقافيـة" يتنكر لكل ما كان يقول ولا يصبح له من هـم سـوى تهمـيش زميلـه.. وحبس صوته أو دفنه أن استطاع إلى ذلك سبيلا.

أذكر أنني كنت مفتونا لـسنوات طويلـة بمفكرنـا الراحـل لـويس عوض وفي أمسيات طويلة كنت أختمها معه بحديث أشبه "بالنجوى" أذكر أنه كان يقول لي:

أنني أضع يدي على قلبي –يا ولدي– خوفا على مصرنا الغالية مـن أن يسيطر الغوغائيون على عقلها!

.. وأقسم –صادقا– أننـي – أكـاد أرى بـأم رأسي مـا كـان يقولـه لويس عوض في سالف الأيام، فالأدعياء الجدد في الدين "وليس الدعاة الجدد" هم الذين يقودون الأمة كـالقطيع فيحكمـون عـلى هـذا بـالردة وذاك بالزندقة وينصبون أنفسهم قضاة يقتلـون هـذا "شـنقًا" والآخـر "بالمقصلة" والثالث "رميًا بالرصاص".

يبقى أن نذكر أن أحدا ليس من حقه أن يشكك في عقيدة الجابري أو عقله وفكره وأن لم يمنع ذلك من أن يسجل البعض تحفظات أو مؤاخذات على مقالته التي أثارت كل هذه الضجة وهي بعنوان "ما قيل أنه رفع أو سقط من القرآن" وانحيازنا له هو – بالدرجة الأولى. انحياز لحرية الفكر التي نراها تذبح "ألف مرة" كل صباح.

قد يرى البعض أن الجابري ما كان له أن يبوح أمام غير المتخصصين من العامة والدهماء بتفاصيل قضية لا تهم غير المتخصصين لأن عاقبة ذلك قد لا تكون محمودة مثلما حدث مع الحلاج والسهرودي اللذين قتلا "ظلما" لا لشيء إلا لأنهما أفصحا عن "مكنون روحي" لا يعرفه إلا خاصة الخاصة.

ونقول قد يكون هذا صحيحا لكن الصحيح أيضا أننا بسبب ضيق الأفق وأنانية المثقفين وطي صفحة التنوير والاستنارة "طوعا أو كرها" أصبحت حرية الفكر غريبة في ديارنا بل ويعتبرها البعض "رفاهية" او من قبيل "لزوم ما لا يلزم".

إنها مأساة تعيشها العقول المصرية في زمن باتت سماؤه ملبدة بالغيوم وأجواؤه معبقة بالدخان الكثيف الخانق!

عروبة مصر بين الثابت والمتحول!

.. يؤلمني ويشقيني كثيرا أن أجد نعرات الإقليمية والفرعونية تعود من جديد لتملأ أرجاء مصر من حولنا وكأن العروبة رداء نلبسه صباحا ثم نخلعه ليلا وغاب عن بال الكثيرين أن مصر العربية هي الثابت الأبدي الذي لا يجدي معه سجال، وإذا أضفنا إلى ذلك أن استدعاء هذا النوع من الحديث جاء عقب مباراة لا تزيد مدتها على ٩٠ دقيقة(*) أدركنا على الفور أن هناك شططا في معالجة الأزمة لأن حال هؤلاء المتحدثين عن الفرعونية أشبه بحال من فقأ عينه بنفسه انتقامًا من شقيقه الذي اختلف معه في الرأي..

والإنصاف يقضي بالقول إن الحديث عن الفرعونية في مصر هو حديث قديم جديد يقابله في الجزائر حديث عن الفرنسة (كفرا بالعروبة

(*) إشارة إلى مباراة شهيرة جرت بين مصر وشقيقتها الجزائر فأثارت قضية الفرعونية والعروبة!

والعروبيين..) وكلنا يذكر تجربة صاحب قصة زينب (محمد حسين هيكل) مع الفرعونية، فلقد اعترف الرجل أن فكرة العودة إلى الجذور قد استهوته حينا من الدهر، وشرع بالفعل يكتب عن أحمس، ورمسيس، ونفرتيتي، وحتشبسوت ودبج الصفحات تلو الصفحات في أمجاد هؤلاء، وتاريخهم الذي لا يجادل أحد في أنه جزء أصيل من تاريخ المصريين، لكنه اكتشف بعد سنوات أن أحدًا لم يتجاوب مع ما كتب.. بعكس كتاباته الإسلامية، وروي الرجل كيف استقبل جمهور القراء كتابه من "وحي محمد الذي" قيل إنه طبع منه عشرات الطبعات في وقت وجيز، وعاد عليه بربح وفير بنى به بيتًا كبيرًا في صحراء مصر الجديدة وقتئذ! وخلَّص محمد حسين هيكل إلى أنه قد أخطأ عندما ظن أن الفرعونية بكل رموزها يمكن أن تكون بديلاً عن الفترة الإسلامية بكل ما تعنيه من ثقافة وفكر وفلسفة.. وانتهى بالقول إن الفرعونية هي أحجار ميتة (لاروح فيها)، بينما مصر الإسلامية نور وإشعاع وحضارة ومياه تضج بالحركة والنشاط.

ليس من شك في أن المتشدقين بالفرعونية اليوم، لو كانت أتاحت لهم ظروفهم التربوية والعلمية أن يقرأوا هذه التجربة التي عاشها واحد من أعلام النهضة المصرية، لما أعطوا لأنفسهم الحق في أن يملأوا الدنيا ضجيجا بحديث قديم عن مرحلة تاريخية لا حياة فيها..

وقديما (وربما من جانب آخر) انطلقت دعوات تستهدف عروبة مصر ولكن عبر بوابة اللغة العربية، فخرج علينا من يطالب بكتابتها بالحروف اللاتينية.. ومن يتحمس لكتابة العامية ونحر لغة القرآن عيانا

جهارا.. لكن ذهبت هذه الدعوات أدراج الرياح، وبقيت العروبة واللغة العربية شامخة كالجبال ثم علينا أن نتساءل ماذا سيبقي لنا إذا تركنا لغة الضاد وثقافتها وتاريخ وانتصارات وهزائم المسلمين وطوينا صفحة مفكري الإسلام وفلاسفته أمثال ابن سينا والفارابي والكندي وابن خلدون وابن رشد وصولا إلى الشعراء المحدثين أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم والمفكرين والأدباء أمثال عباس العقاد وطه حسين، بل أن الأخير سيتعين علينا أن نغير صفته إذ لم يعد وفق هذه الدعوات الإقليمية والقطرية الضيقة بالإمكان تسميته بعميد الأدب العربي، وكذلك توفيق الحكيم لن يكون بعد اليوم عميدا للمسرح العربي...

إنه الخواء الذي سيعم حياتنا وهي حالة التصحر التي حذرنا منها فيلسوفنا الراحل زكي نجيب محمود الذي وجد أن لدى البعض هواية اقتلاع الأشجار الباسقة في حياتنا الفكرية والثقافية!

إن عروبة مصر ليست ثوبا مزركشا نلبسه حينا من الدهر ثم نلقي به في سلة المهملات أو نقذف به على قارعة الطريق، إنها الجسد والروح معا ولا مجال للحديث عن شيء آخر، بل أن الريادة التي حققتها مصر باقتدار عبر المد الثقافي المصري هي في الأصل ريادة عربية وليست فرعونية، وكتابات عباس العقاد التي ساعدت في نجاح ثورة التعريب في الجزائر لم تكن مكتوبة بالهيروغليفية إنما بلغة القرآن ويروي أن إسلاميات العقاد كان يتلقفها الشعب الجزائري إبان ثورته ضد الاحتلال الفرنسي خصوصا سلسلة العبقريات ويقرؤها بنهم شديد،

بل كانت صلته المباشرة بالدين الإسلامي الحنيف لذلك كان الفرنسيون يفرضون غرامات مالية ضخمة على كل من تضبط معه هذه المؤلفات.

وظل الأزهر الشريف يشع بنوره اللغوي والديني على كل الدول العربية والإسلامية خصوصا في المغرب العربي ولم يكن يرى أية غضاضة في أن يتولي مشيخته عالم تونسي هو (الخضر حسين) وأن يتولى منصب قاضي القضاة في مصر تونسي آخر هو عبد الرحمن بن خلدون صاحب المقدمة الشهير.. واستقبلت مصر مفكرا جزائريا من طراز فريد هو الفيلسوف مالك بن نبي الذي ترك علماء الأزهر بصماتهم الفكرية على حياته وكان من ثمرات هذه المرحلة الأزهرية كتابه الأشهر "الظاهرة القرآنية" الذي ترجمه إلى اللغة العربية الدكتور عبد الصبور شاهين.. أريد أن أقول أن هذا الحضور المصري في العالم العربي هو حضور عربي بلغة الضاد أولا، أما الفكر العروبي فكلنا يعرف أن مصر كانت قلبه النابض ولا تزال وهو قدر وليس اختيارا، ولئن كان البعض يتنادى بين وقت وآخر بالنكوص عن العروبة سواء في مصر أو في الجزائر وبعض الدول العربية الأخرى، فلأننا أهملنا لعقود متتالية تربية النشء العرب علي الانتماء إلى فكرة القومية العربية التي ملأت حياة الأجيال البعيدة فكرا وطموحا وثقة.

والأخطر هو أن كبار المفكرين والمثقفين قد تخلوا عن دورهم التنويري وتركوا النشء نهبا لأفكار واردة من هنا وهناك تحرض على كراهية الآخر، والانكفاء على الذات، وقد ساعدت ثورة الاتصالات في

ذلك، فبات صغار الفنانين والفتية الصغار من المدونين هم الذين يرسمون سياسات الدول، ويضعون الخطط وكلنا يعرف أن التهييج والاستعداء والتربص قام هؤلاء بالجزء الأكبر منه وتولي أمر الجزء الباقي نفر من مقدمي البرامج الحوارية في الفضائيات الخاصة، وكانت النتيجة أن تم تغييب الوعي لدى الشباب، والتعتيم على ثقافة سياسية هي في الأصل إن لم تكن غائبة فهي شاحبة ولا ملامح لها.

وإذا علمنا أن الفكر العربي يتعرض منذ سنوات لمحاولات تقزيم بحيث يبدو صغيرا تافها لحساب الفكر الانعزالي الذي ينادي بالقطرية، بل بما هو دون ذلك، لأدركنا على الفور أن في الأمر مؤامرة تظهر حينا بألسنتهم الحارقة ثم تخبو حينا لكنها لا تموت.

وإذا لم تكن قد تفجرت هذه القضية بسبب مباراة دولتين عربيتين كانت بالقطع ستنفجر في مناسبات أخرى، لكن للإنصاف يجب أن نذكر أن مصر قد عالجتها على المستوى السياسي بحكمة معروفة عنها، فعندما أكد الرئيس الأسبق مبارك في خطابه أمام مجلسي الشعب والشورى أن حماية المصريين في الخارج هي مسئولية الدولة وأن كرامة المصري من كرامة مصر دون أن يشير لا تلميحا ولا تصريحا للمباراة التي فجرت كل هذا الضجيج، كان يؤكد أن علاقات مصر الخارجية وتوجهاتها العربية أكبر من أن يعكر صفوها مجرد مباراة رياضية، والأهم أن هذه العلاقات يحكمها أمران: الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة.

بكلمة أخرى: إن دعاة الانعزالية لا مكان لهم، فعروبة مصر فوق كل اعتبار ولا يمكن التضحية بالهوية لمجرد انفعال أو ضيق مهما كانت الأخطاء التي وقعت في سياق مباراة، لأن مصر أكبر من أن يتم اختزالها في حدث ما أيا كانت تداعياته.

«المتحولون» في الجنس والفكر والسياسة!

روى لي الفنان الرومانسي الراحل يوسف فرنسيس في واحدة من أمسياته الباريسية أن أحد الصحفيين كان في رحلة خارج مصر لمدة أسبوعين.. وعندما عاد عرف في المطار أن الأستاذ هيكل ترك مقعده في رئاسة تحرير الأهرام.. وأقسم يوسف فرنسيس أن هذا الزميل طرق باب رئيس التحرير الجديد وقدم إليه الهدية التي كان قد اشتراها خصيصًا من أجل الأستاذ هيكل (وكانت علبة سيجار فاخرة).

والمعنى أن هذه الهدية كانت لمقعد رئيس تحرير وليس للأستاذ هيكل في شخصه مع أن المقعد لا يدخن وإنما الذي يدخن (سيجارًا) من أجود الأنواع هو الأستاذ هيكل..

والمعنى الثاني هو أن التحول بات سمة من سمات البشر والعلاقات الإنسانية بل امتد ليطال الانتماء والمبادئ والقناعات.. وكثر

المتحولون في كل الأماكن وفي جميع المجالات. والغريب أن أحدًا منهم لا يشعر بالخجل أو حتى بتأنيب ضمير وكأن التحول بات القاعدة وليس الاستثناء..

فالنواب الذين فازوا بمقاعد في البرلمان المصري (مجلس الشعب) على قوائم المستقلين أو ضمن القوائم الحزبية المعارضة، لا يرون غضاضة في أن (يتحولوا) وينضموا إلى قوائم الحزب الحاكم..

دون أن تهتز في رؤوسهم شعرة، وكأنهم تصرفوا بصورة طبيعية.

مع أن الديمقراطية الحقة تراهم شياطين. ومحتالين ولا يمكن ائتمانهم على شيء لأن الناخب اختارهم في الموقع الأول. وبانتقالهم إلى الموقع الثاني إنما يضعهم (في خانة) من خان الأمانة. وتلاعبوا في الانتخابات واعتبروا أصوات الناخبين جسرًا يقودهم نحو طموحات سياسية خفية.

.. وفي باريس – عاصمة النور – شاءت أقدارى أن أرافق مهنيًا بعض الأشخاص الذين كانوا يتحدثون ليل نهار عن عبد الناصر ويعتبرون أنفسهم من سدنة الناصرية والمدافعين عنها.

.. وعندما عادوا إلى مصر تحولوا في بساطة كما تتحول الحرباء فانضم صغيرهم إلى حزب الوفد. وشرع يكتب في الليبرالية مدافعًا عن الملك فاروق وعصره.. وكأنه يتبرأ من الناصرية التي أكل لسنوات بملاعقها الذهبية..

.. العجيب أن صاحبنا إياه لا يرى أنه أتى شيئًا نكـرًا. فـالمتحولون – أمثاله أحرار فيما يفعلون!

.. واللافت للنظر أن هؤلاء المتحولين فكريًا وأيـديولوجيا يبـذون الجميع في صفة أخرى هي الازدواجية أو الفصام.. فقد نقـرأ لأحـدهم مثلاً مقالا يندد فيه بالجالسين على مقاعد السلطة سنينًا عـددًا ونـسي أو لعله (تناسى) أنه جلس على مقعد سلطة إحـدى المؤسـسات أكثـر مـن عشرين عامًا.. ثم يتحدث آخر عن الإحبـاط الـذي بـات سـمة غالبـة للسلوك العام في أرض الكنانة بـسبب موجـات الثـراء الفـاحش التـي حولت البيوت إلى قصور لدى شريحة لا تزيـد عـلى النـصف في المائـة.. ونسي (أو لعله تناسى) أنه واحد من هذه الشريحة التي أصـبحت عـارًا مصريًا تحجب شمس يوليو في وضح النهار..

.. هؤلاء المتحولون يرفلون في حلـل الـسعادة بيننـا ولا يحاسـبهم أحد برغم تنافي هذا السلوك مع أبسط قواعـد الأخـلاق والـسلوكيات المجتمعية القويمة..

وأقف مندهشًا أمام أولئك الـذين ينـددون بـالمتحولين في الجـنس والنوع ويعتبرونهم (سُبة) في جبين الوسـط الاجتماعـي بوصـفه منتجًـا للقيم والسلوك..

.. وعندي أن المتحولين في المبادئ أشد خطرًا على الأمة مـن ذلـك الذي يتحـول جنـسيًا لأن هـذا الأخـير لديـه مبرراتـه الفـسيولوجية.. والسيكولوجية وعندما ينقلب الرجل على سيدة أو العكس، فـلا مجـال

لتحولات أخرى.. أما متحولو المبادئ فهم الأخطر لأن أحدًا لا يعرف متى ستتوقف سلسلة التحول: فهو بالأمس كان ناصريًا متعصبًا، وبعد أن امتلأت جيوبه وجوفه قفز إلى الساداتية يدافع وينافح ويضيف إلى مكتسباته مكتسبات أخرى..

ثم ليس هناك –بحسب هذه الشريعة– ما يمنع من أن يتحول إلى بوق دعائي لفكر دولة مجاورة، أو دولة كبرى مثل أمريكا.. أو حتى دولة صغيرة لكن طموحه.. المهم لديه أن يجد ثمنًا لتحولاته التي لا يقف في طريقها واقف!!

.. بالطبع لست أدافع عن المتحولين في الجنس والنوع كما قد يعتقد البعض، وإنما أريد أن أقول إننا نهتز ونترنح لومًا وتقريعًا وتأنيبًا إذا ظهرت حالة تحول جنسي واحدة، ويصرخ الصارخون مؤكدين أنها إحدى علامات القيامة.. بينما الأكثر فظاعة هو التحول الفكري.

.. ويبدو أن هؤلاء يراهنون على أن الذاكرة الجمعية للأمة المصرية (مخرومة) أو لا قاع لها، وبالتالي فهي لا تحتفظ بشيء ويحلو للبعض أن يصفها بأنها أشبه بقطعة الجبن الفرنسية التي تمتلئ بالثقوب.. واذكر في هذا الشأن أنني أضع تحت زجاج مكتبي صورة نادرة للرئيس جمال عبد الناصر وعندما رآها محمد سلماوي رئيس اتحاد كتاب مصر في ذلك الوقت، علق قائلاً: ليست بطولة أن تضع صورة عبد الناصر في مكتبك اليوم، وإنما البطولة كانت لو فعلت ذلك في زمن السادات!

.. في إشارة إلى أنه تعرض للأذى أو على الأقل المضايقات في فترة السادات بسبب ناصريته التي كان يعلنها حسب قوله.

.. وشرحت للسيد سلماوي أنني أضع هذه الصورة وليست في ذهني –إطلاقًا– هذه الحسابات التي يتحدث عنها وقلت إنني أحب عبد الناصر، وبعيدًا عن التصنيفات السياسية (الناصرية وما شابه).

.. أو الحزبية، فهي أمور كانت ولاتزال لا تعنيني لكن حبي لعبد الناصر، وإيماني بحركته التاريخية في عمر مصر والمنطقة والعالم. تظل باقية وراسخة رسوخ الجبال.

.. أريد أن أقول إن المتحولين في الفكر والسياسة والقيم والمبادئ هم معول هادم لأنهم كالسوس ينخر في عظام الأمة المصرية والغريب انهم يتموقعون في أماكن كثيرة (بعضها مهم وخطير) لذلك أرى أن رصد حركتهم وفضح وسائلهم فرض عين على كل مصري.

ثقافة مصر بين الثراء والخواء!

"مطلوب منا جميعا أن ننسى لغتنا العربية (الشاعرة) ونتنكر لتاريخنا العربي والإسلامي، ونسفه عبقرية محمد، وأبي بكر، وعمر، ونحرق تراثنا الذي هو كل ذواتنا، وننسلخ عن محيطنا العربي بدعوى أننا فراعنة!".

هذا ما يقوله انعزاليو هذا الزمان، وهم امتداد لانعزاليين سابقين تحدثوا كثيرا عن "عروبة مصر" بوصفها وهما، وإفكا، وزورا!

وهي دعوة مشبوهة – بدون شك- يدخل في إطارها تخوين سيبويه (عالم النحو الشهير) والكتابة باللغة العامية، أو كتابة اللغة بحسب منطوقها، وإلغاء المثنى، ونون النسوة، وجميع القواعد الحاكمة للغتنا العربية الجميلة.

و تتولد منها دعوات (مسخ الهوية المصرية) بدءا بالتشكيك في التراث العربي والإسلامي، وانتهاء بالكتابة بالأحرف الهيروغليفية أو بالأحرف اللاتينية، وهذا أضعف الإيمان.

وبالتالي علينا أن نصحح ما نشأنا عليه صغارا، ونشأ عليه آباؤنا وأجدادنا، فالدكتور طه حسين لم يعد عميدا للأدب العربي، وإنما – تصحيحا واتساقا مع دعوة فرعونية مصر – يجب أن يكون منذ الآن فصاعدًا، عميدًا للأدب المصري "الفرعوني"!

وكذلك الحال بالنسبة لعباس العقاد عملاق الأدب العربي سابقًا والمصري حاليا، وأحمد شوقي وإبراهيم المازني، وزكي مبارك، وشوقي ضيف، وجابر عصفور، ورجاء النقاش، وكلهم كانوا مشاهير في لغة الضاد، والفكر العربي المعاصر. وبات عليهم أن ينشئوا لأنفسهم مكانة مصرية فرعونية وكفى!

ولا يهمنا إن كان هؤلاء (الرجال – العقول) سيسعدهم كثيرا ذلك الأمر (الجديد) أم لا، وإنما المهم أن نصحح المسار، ونجعلهم يقفون بيننا على أقدامهم بعد أن ظلوا لسنوات وسنوات يقفون على رؤوسهم!

إن هذه الدعوة بفرعونية مصر، وإن لم تكن جديدة تماما فإنها لا تخلو من سعار النرجسية، كما لا تخلو من تصفية حسابات شخصية بعد أن تبين للأعمى والأعشى والبصير على السواء أن ريادة مصر الثقافية والإدبية والفكرية أصبحت في مهب الريح.

العجيب والغريب أنه بدلا من (دراسة الحالة) لمعرفة أسباب التقهقر، اختار نفر من بيننا الأسهل وأعلنوا (طلاق العروبة) طلاقا بائنا لننكفئ على ذواتنا متدثرين بوهم الفروعونية، وغاب عن بالهم أن الفروعنية قمقم، ومصر العروبة عملاقًا. وآن للقمقم أن يحتوي العملاق!!

المؤلم أن محمد حسين هيكل (صاحب قصة زينب) سجل تجربته عندما ترنح لبعض الوقت بين فرعونية مصر وعروبتها واعترف بفشله بعد أن اكتشف أن تحتمس وأحمس ورمسيس ونفرتيتي لا صدى لهم في الضمير والوجدان المصري المشبع –في الأصل– "بعدل" عمر بن الخطاب، و"علم" علي بن أبي طالب، و "ورع" فاطمة الزهراء البتول، وشتان بين الثراء والخواء.

الثقافة المصرية بين «الشفاهي» و «المكتوب»!

يعيش في مدينة المنصورة عالمان كبيران يحملان اسما واحدا هو "محمد غنيم" الأول اشتهر بين الناس بأنه مؤسس مركز الكلى "الطبي" الذي يرقى – بالفعل- إلى مستوى المراكز الطبية العالمية والثاني هو أستاذ علم الاجتماع الذي نذر نفسه لمهمة علمية صعبة هي تسجيل الثقافة الشعبية وتحويلها من مجرد أقاويل وأغان وحكاو إلى كتابة علمية رصينة في موسوعات ومراجع، وكتب من كل لون وحجم..

فكل ما يجري على "ألسنة الناس من أمور "يراها الكثيرون عفوية" تلقى في ميزان عالم الاجتماع والأنثربولوجيا "د. محمد غنيم" اهتماما خاصا فهو يحتفي بها، ويهرع إلى تدوينها في مذكرات لا تفارق جيبه ثم يعكف – بعد ذلك – على تحليلها ووضعها في الموقع الأنطولوجي الذي تستحقه.

وعندما يسير أحدنا في شوارع وأزقة وحواري قرى "شرق الدلتا" قد لا يعبأ بما يرى أو يشاهد.

أما د. محمد غنيم فله مع هذه الأماكن شأن آخر، فهو يصيح السمع، ويطيل التأمل، ويستغرق في التفكير، فكل ما تقع عليه عيناه يحمل قيمة في ذاته وفي مدلولاته أيضا وأشهد أني بعد أن قرأت أشطارًا من مؤلفاته حول العادات والتقاليد في دلتا مصر، ومجمع الغواني وسوق الخواجات في المنصورة ومجمل ما رصده في مجال الثقافة الشعبية تذكرت الاحتفالات والمهرجانات الفلكلورية التي تقيمها المدن والضواحي الفرنسية سنويًا وتعرض فيها خصوصياتها في المأكل والملبس، وعاداتها وتقاليدها في الأفراح والولادات، وأعياد الميلاد؟

أهم ما يقوم به د. محمد غنيم هو ارتياده مساحات جديدة وخوضه مجالات لم يسبقه إليها أحد ثم براعته في تسييل" الثقافة الشفاهية التي جعلها "سائلة" لتكون في متناول الجميع كالشراب حلو المذاق، فدير القديسة جميانه مثلا وهو أحد المعالم القبطية في شرق الدلتا – تدور حوله أقاصيص كالأساطير وتختلط بأفكار تملأ عقول وقلوب المسلمين والأقباط على السواء.. لم يفلت من المرصد الأنثروبولوجي الذي أسسه د. غنيم في المنصورة، فدون كل شاردة وواردة وهبط بها من الفضاءات السمائية لتكون ملموسة ومحسوسة بين أيدي الباحثين كمادة بكر تساعدهم في فهم عبقرية المصريين في صوغ "تعايش مدني رائد" بين شرائحهم المجتمعة المختلفة عبر العصور.

ما يقوم به عالم الاجتماع والأنثروبولوجيا د. محمد غنيم في مجال الدراسات الميدانية هو عمل جليل لأنه أشبه بمن يقف على حافة بئر عميقة ينهل من مخزونها الذي لا ينضب ليملأ دنيانا فهما وفكرا واستنارة ورغم الصعاب التي تواجهه فإنه يجد في عشقه للانسان النيلي القديم – كما يقول – عزاء وسلوى – وقناعته اللا محدودة هي أن هذا الانسان الذي تربطه بدلتا مصر جدلية من نوع خاص يستحق أن نكشف له عن جذوره العقلية، وموروثاته في الأدب والفلسفة والسياسة وفن الحياة لتزداد ثقته بنفسه فمثلما استطاع أن يؤسس حضارة تعود إلى ما يقرب من سبعة آلاف عام، يمكنه اليوم أن ينهض ليصل حاضره "ومستقبله" بهذا الماضي التليد وهي رسالة قومية تستحق لعمري أن نحني لها الجباه.

أفول الدور الإقليمي المصري..

درجت بعض الكتابات (في مصر وخارجها) على الحديث عن أفول الدور الإقليمي لمصر، وغياب تأثيرها (السياسي) في المنطقة العربية، وبلغ الشطط بنفر من الكتاب حدا جعلهم يتصورون أن "الريادة المصرية" اصبحت في خبر كان.. وبنى هؤلاء حججهم (الواهية!) على ما تحقق للفلسطينيين من حد أدنى من التوافق بمقتضى اتفاق مكة المكرمة.

وانعقاد قمة الرياض بالمملكة العربية السعودية، وما صاحب ذلك من ضجيج إعلامي صور الأمر على أنه هزيمة لمصر وتقزيم لدورها كأن مصر لم تكن تريد (توافقا) للفلسطينيين، ولا أن يتبلور موقف عربي موحد في قمة الرياض.

.. والمعادلة –مطروحة- هنا- بشكل خاطئ (مع سبق الإصرار والترصد..!)

.. وإذا انتقلنا لنوع آخر من الكتابات سنجدها تنسج على نفس منوال (أفول الدور المصري) ولكن باتجاه إيران-هذه المرة- ".

فتذهب إلى القول بأن إيران تريد أن تسلب مصر دورها، ومكانتها كقطب (عربي وإسلامي) بارز في المنطقة.. ولمثل هؤلاء وهؤلاء أقول أن ملكة التحليل والاستنتاج قد خانتهم فالدور المصري لم "يمنحه" أحد لمصر كي "يمنعه" عنها –وإنما فرضته مقتضيات التاريخ والجغرافيا (وعبقرية المكان) فمصر كانت موجودة منذ آلاف السنين ولم تكن كما مهملا وإنما كانت فاعلة ومؤثرة.. ولاشك أن الذكرى تنفع المؤمنين فإذا قلبنا في صفحات التاريخ وتوقفنا عند صفحة محمد على وحروبه البحرية، ودعمه للدولة العثمانية ثم تآمر القوى الدولية الاستعمارية عليه، وكذلك صفحة جمال عبد الناصر التي يؤرخ لها الباحثون ورجال السياسة باعتبارها الشرارة التي أشعلت المنطقة العربية بالثورة والنهضة ونفض غبار الماضي..

ولاشك أن حروب ٤٨، و ٦٧.، ٧٣ تشهد لمصر بأنها كانت الرائدة في الذود عن حياض العرب والإسلام..

نعم استضافت السعودية القمة الدورية العربية. وهذا حقها وجلس القادة والرؤساء. كما يجلسون في كل مرة في لبنان أو السودان أو دمشق يحدوهم أمل واحد هو التوافق على الثوابت القومية التي ترضى طموح وغرور المواطن العربي من المحيط إلى الخليج، ولم تتأخر مصر

عن الإجماع الذي طالما ناضلت وجاهدت من اجله.. فأين الخلل في ذلك؟ وما العائد من حديث مريض عن غياب، وأفول، واحتضار؟!

.. وتعيش دولة إسلامية أخرى (هي إيران) مرحلة (مد وجذر) مع الغرب، وتدير أزمتها بحسب ما تراه وتطمح إليه... فما علاقة (مصر والدور والمكانة) بكل ذلك.

ولا يخفى على لبيب أن دعاوى التشرذم والتفرقة، التي تجسدها أحاديث الضغينة (وموت الدور) وانتهاء الريادة هي أحاديث أفك تضر أكثر مما تنفع.. فدور مصر (باق)، وريادتها لا يختلف عليها اثنان عاقلان فدروس التاريخ تقول أنه لا سلام ولا أمان ولا حروب أو مواجهات في المنطقة بدون مصر. لكن ماذا عسانا نفعل مع أولئك الذين في قلوبهم أمراض وعلل من كل لون وصنف؟!

مصر «ثقافة» وليست «جنسية»!

.. الأجيال المصرية المتعاقبة لا تعرف الكاتب والمفكر الجزائري مالك بن نبي الذي مرت الذكرى المئوية الأولى لمولده.

جاء هذا الرجل على دنيانا في عام ١٩٠٦ بعد عام واحد من رحيل الإمام محمد عبده صاحب المدرسة الإصلاحية الإسلامية الشهيرة..

.. وفي كل مرة تقع عيني على اسم مالك بن نبي في كتاب أو على صفحات جريدة تقفز إلى ذهني مباشرة علاقة هذا الرجل الكبير بمصر، فلقد استوطنها سنين عددا وربطته صلة قوية بالرئيس جمال عبد الناصر، وتآلفت روحه مع أرواح مثقفي مصر في ذلك الزمان.. ونشرت له دور النشر المصرية بعض مؤلفاته التي لا تزال تنبض بالحياة إلى وقتنا الحاضر خصوصًا كتابه "شروط النهضة" الذي يتحدث فيه عن نظريته الخاصة بالقابلية للاستعمار..

.. ولمن لا يعرف مالك بن نبي أقول إنه أنهى دراسته الثانوية في الجزائر ثم عبر البحر متجهًا إلى باريس حيث درس فنون الكهرباء بكلية الهندسة.. ورغم ذلك اشتغل بالفكر، ووهب حياته في محاولة تجديد المسلمين فوضع كتابه المعروف "الظاهرة القرآنية" كما توالت مؤلفاته تعالج قضايا الثقافة، ووجهة العالم الإسلامي، وسيطرت على عقله ووجدانه الفكرة لأفروآسيوية التي رأى فيها (طوق نجاة) ينقذ الأمة العربية من واقعها الصعب.

.. كما يذكرني اسم الرجل بدور مصر (الحاضن) لكل المجددين والمبدعين العرب، .. فلولا المناخ العقلي الذي وفرته أرض الكنانة لمالك بن نبي، ربما لانطفأت شعلته أو لضاع في زحام الحياة الجزائرية التي كان الاستعمار الفرنسي يفرض عليها حصاره الخانق (جسدًا وروحا).

.. والتباين أن هذا المفكر الجزائري لم يكن يجيد اللغة العربية، إلا أن حياته في مصر، ومخالطته لأهلها، وقراءاته المستمرة في عقلها وفكرها، ساعدته في إتقان لغة الضاد حتى استطاع أن يحاضر بها، وكان ذلك شيئا مستحيلاً في بواكير حياته.. أما أكثر الأماكن التي كانت تسكن قلبه فهي أحياء الحسين والسيدة زينب.

ويُروى أنه كان يعشق السير فيها متريضًا ومتأملاً بمفرده حتى إذا أعياه التعب، يجلس على مقهى شعبي يرقب منها حركة الناس من حوله ويستمع – في عفوية – إلى أحاديث رواد المقهى التي كان يعتبرها

محرضات على التفكير، وترمومترا يقيس به هموم الناس وما يطمحون إليه..

.. بمعنى ما، لقد احتضنت مصر مالك بن نبي وصهرت وجدانياته بحرارة الحياة فيها وقادته إلى طريق الفكر الإبداعي الخلاق الذي يدور (من ألفه إلى يائه) حول البناء الجديد للعالم الإسلامي..

لذلك فاسمه يتصدر قائمة المجددين والمصلحين الذين ينتمون إلى رجال من وزن جمال الدين الأفغاني وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده..

ومما أذكره له حيرته عندما جلس في حجرته ذات مساء يبحث عن الإسهام الذي شاركت به الحضارة الإسلامية في بناء الحضارة الإنسانية. وبعد أن طافت عيناه على الأشياء من حوله، وتوجع قلبه لأن معظم ما يقتنيه هو من صنع الغرب بدءًا بالبدلة التي يلبسها وانتهاء بالمصباح الكهربائي الذي ينير الحجرة مرورًا بالتليفون والمذياع والتليفون..

.. وعندما رمقت عيناه (قُلة فخارية) في شباك الحجرة هتف في صوت مكتوم وقال لنفسه: هل هذه القلة هي كل ما ساهم به المسلمون في صرح الحضارة.. إنه لأمر مؤسف!.

.. ولعل هذه اللحظة التأملية هي التي جعلته ينذر نفسه وحياته لتجديد عقل الأمة من خلال أفكاره التي تنفض الغبار عن الشعوب وتدفع بها في أتون المنافسة والصراع وإثبات الذات وتأكيد الكينونة.

.. مالك بن نبي هو مفكر جزائري من الوزن الثقيل تركت مصر في عقله وقلبه علامات بارزة، ونهل هو من ينابيع ثقافتها الكثير.. والسؤال هو: لماذا لم يظهر مالك بن نبي آخر منذ ١٠٠ عام. والإجابة: "لأن مصر الأمس كانت حاضنة لكنها اليوم طاردة.. وكان مالك بن نبي يقول إن مصر (ثقافة) وليست (جنسية) تُرى ماذا جرى لمصر وثقافتها؟!

شكوك مشروعة!

تنتاب الجميع حالة من الفزع بسبب ما تنشره وسائل الميديا عن انفلونزا الطيور واحتمال انتقالها إلى الإنسان، كما تتحدث عن الخطة القومية التي تبحثها وزارة الزراعة للقضاء على هذا المرض خلال ثلاث سنوات..

وهذا الأمر (التحذيري) لا غبار عليه، لكننا – في إطار هذه التعبئة، وذاك التخويف من تحول المرض إلى وباء – نسينا أننا نتعامل مع مواطن مصري لا ينقصه الذكاء، بل هو شديد الذكاء بالفعل فهو غير مقتنع بكل ما يقال بشأن مرض أنفلونزا الطيور ولديه أسبابه ومنها:

أن هذا المرض ليس حكرًا على مصر، بل هو موجود في أكثر من دولة ورغم ذلك تسير الحياة في هذه الدول بشكل طبيعي، ولا حاجة هناك إلى التقريع أو التخويف!.. بل إن رئيس دولة – هي فرنسا –

خـرج ذات مـرة – في بدايـة ظهـور المـرض – وتعمـد أن يأكـل أمـام كاميرات التليفزيون قطعـة مـن الـدجاج ليقـول للجميـع لا ضرر ولا ضرار..

ومنذ ذلك اليوم لم يعد أحد يسمع عـن فـزع مـن أي نـوع ينتـاب الفرنسيين!

.. فهل معنى ذلك أن المرض انقرض عنـدهم وبقـي عنـدنا، أم أن المعالجة الصحية والإعلامية (الفرنسية) تختلف عن معالجتنا لهذه الأزمة في مصر؟

والشيء نفسه حدث – بشكل آخر وهادئ جـدًا – في تركيـا التـي كان المرض قد ضرب ثروتها الداجنة قبل أن تصل إلى مصر..

المواطن المـصري العـادي يـرى – وهـذا هـو اجتهـاده – أن هـذا (التقريع) المتعمد والمغالى فيه في مصر بشأن مرض أنفلونزا الطيور ليس بريئًا تمامًا من شبهات كثيرة . ويريـد أن يقـول عـن تـضخيم الأزمـة – بصورتها التي نراها اليوم – يؤدي على انشغال الناس بالمرض والمصابين به. وينـسون الحـديث عـن أسـعار الـدواجن التـي ارتفعـت إلى أرقـام قياسية.. فمن كان يصدق أو يحلم أن سعر البيضة يقفز من ٤٠ قرشا إلى جنيه في أقل من شهرين!

.. مرة أخرى المواطن المصري العادي ليس ساذجًا أو عبيطًا. فهـو يعرف –بالسليقة– أن نيران أزمة أنفلونزا الطيور لم تُشعل بهذه الـصورة

إلا لكي تخفي حقائق دامية. وإلا فلماذا لم نسمع عن (مضاعفات) لهذه الأزمة في الدول الأخرى في فرنسا، وتركيا على سبيل المثال.

فالأسعار في هذه الدول لم تتحرك (تقريبا) والناس يأكلون الدواجن كما اللحوم في هدوء وكأن شيئا لم يكن.

.. ويتساءل المواطن المصري الطيب قائلاً: لماذا دمرنا ثروتنا الداجنة (بهذه الدرجة من الوحشية) واستعضنا عنها بالاستيراد من دول تعاني بدورها من مرض أنفلونزا الطيور؟

ثم ما هي الشركات (أو الأشخاص) الذين ينعمون بميزات هذا الاستيراد الذي بالطبع سيدر دخلا وأرباحا خيالية؟

.. إنها مجرد اجتهادات تجري بها ألسن المصريين وهم (وقوف) ينتظرون الأوتوبيس أو (للجلوس) في دواوين عملهم أو المقاهي يحتسون الشاي ويجترون الأوجاع المعيشية.

بكلمة أخرى.. المصريون الطيبون غير مقتنعين بكل هذا التجييش المتعمد في المجتمع بخصوص مرض انفلونزا الطيور، ويظنون – وكثير من الظن ليس إثمًا – ثمة افتعال في إشعال الأزمة بهذه الضخامة. بالقطع هناك من يتربح من ذلك.. وإلا فلماذا لا نسمع عن ضوضاء مشابهة لضوضائنا في البلدان الأخرى..

إنها مجرد استفسارات يطرحها المواطن المصري العادي على نفسه – على الأقل ليؤكد – لنفسه أيضًا – أنه ليس ساذجًا أو عبيطًا!!

عروبة مصر بين الوجود والعدم!

مثلما تغري "قمم الجبال" بالتسلق لدى الضعفاء والأقوياء على السواء، فكذلك تغري "عروبة مصر" الكثيرين بالحديث عنها في كل العصور، وفي ظني لو علم منكرو العروبة أن نقاشا جادًا دار حول عروبة مصر وفرعونيتها عام ١٩٣١، وقرأوا الحجج التي سيقت في هذا الزمان ربما لترددوا ألف مرة قبل الخوض فيه مجددا.

على أني لا أصادر حق من يشاء في أن يتحدث (فيما يشاء) وقتما يشاء، لكن كنت أربأ بهم أن يقفوا على حدود وأبعاد ما قيل حتى لا يجدوا أنفسهم (مكررين) أو (متجاوزين) أو ضعيفي الحجة، مثيرين للشفقة.. فعروبة مصر ليست قميصا نخلعه صيفا ونرتديه شتاء، وليست عنوانا نضعه فوق رءوسنا وقتما نحب، ونقذف به بعيدا وقتما نكره، لأن عروبة مصر هي مصر ذاتها، وهي تسري – كما يقول

المتصوفة والزهاد – سريان الماء في العود، ويصعب كثيرًا معرفة مكانها من هذا الجسد العظيم (مصر).. فهي في الجذور والساق، والأوراق جميعا وليس بوسع أحد الزعم بغير ذلك، وتحضرني كلمة لمكرم عبيد يقول فيها – تعليقا على منكري عروبة مصر – إن المصريين عرب منذ الفراعنة ويضيف لقد جئنا نحن معشر المصريين من آسيا ونحن أدنى إلى العرب منذ القدم من حيث اللون واللغة والخصائص السامية والقومية.. وقد يحلو للبعض أن يربط بين القومية وعبد الناصر، باعتبار الأخير هو أفضل من جسد الفكر العروبي في تاريخ المنطقة العربية.. والحق أن العروبيين المصريين الذين سبقوا عبد الناصر كثُر، ومن عباءتهم خرج عبد الناصر، أو كما يقول أحمد عبد المعطي حجازي في كتابه "عروبة مصر" إن عروبة مصر هي التي خلقت هذا الابن العظيم وليس هو الذي خلقها..

ما معنى هذا الكلام؟

معناه أن عروبة مصر تسري فينا.. في الأرض والبشر والحجر وهي ذاتنا، وليس في ذلك أي تجن على ماضينا الفرعوني البعيد، فنحن نعتز ونفخر به وهو من مقوماتنا التي لا ينكرها إلا جاحد لكن اللغة والدين والتاريخ والمصالح والمصير المشترك وما انبثق عنها من ثقافة وعادات وتقاليد تربط بيننا وبين البلاد العربية قد صهرت مصر في دائرة أوسع من فرعونيتها. وإذا علمنا أننا نعيش في عصر لم يعد يؤمن إلا بالتكتلات الكبرى، لأدركنا أن خيار التاريخ لنا هو الأصوب، فمستقبلنا يكمن في

التكتل إلى الجوار العربي كما كان يقول العروبيون المصريون، ولئن واجهتنا صعوبات في هذا الطريق، وشكك أعداء العروبة في منظومة العمل العربي المشترك مرة ومرات، فليس معنى ذلك أن نحرق المعبد العربي على من فيه، ونتدثر بفرعونيتنا – في سذاجة – ونلقي بالقفاز في وجه الجميع.. فهذا ليس من الحصافة ولا من التاريخ في شيء! لأننا – في هذه الحالة – سنصطف دون أن ندري، إلى جانب دعاة التجزئة والتشرذم والتشظي فننسلخ عن محيطنا العضوي (وأمننا القومي) لنحقق بنود ومفردات المشروع الاستعماري، مشروع الشرق الأوسط الكبير ومشتقاته..! ناهيك عن لا عقلانية الدعوة إلى إيقاظ الفرعونية لتكون بديلا عن عروبة مصر.

وقديما سأل أحد القوميين المصريين مُستهجنا: هل يرد أن نتخلى عن لغتنا العربية ونعود إلى اللغة الهيروغليفية التي لا نعرف كيف تكتب أو بالأحرى ترسم .. أم هل يريد دعاة الفرعونية أن ننسلخ عن دين الإسلام وعبادة الله الواحد، ونعود إلى عبادة آمون أو رع أو أوزوريس.. أم هل يريد منا أن يتزوج الأخ أخته وأن نقدس القطط والثعابين..

أغلب الظن أن دعاة الفرعونية لا يريدون شيئًا من ذلك، وإلا لوجدنا أنفسنا مرة أخرى أمام كارثة عقلية وفكرية كثيرًا ما حذرنا منها فيلسوفنا الراحل ذكي نجيب محمود.

لنعترف بأن مسيرة الفكر القومي العربي تتعثر منذ سنوات وأن أصواتا عربية صدرت هنا وهناك تتهم مصر بأنها قد مارست على الدول العربية غزوا كاسحا لعشرات السنين عبر الكتاب والفيلم والأغنية.. وأن مصر قد نالها من قصار العقول (المؤدلجين) الكثير من النقد غير الأمين الذي بلغ حدود التجريح في أحايين كثيرة.. فتطاول بغاث الطير على نسور السماء.. هذه أمور ليس بوسع أحد إنكارها، لكن نقدا قاسيا من هذا النوع لا يبرر الصراخ الذي يملأ الأرجاء اليوم، ويطالب بالانسلاخ بدعوى أننا فراعنة ولسنا عربا!

إنها بكل المقاييس دعوة ضالة ومضللة لأنها تستهدف (كينونة) مصر ومسخها لتصبح شيئًا شأنها، يثير الشفقة والسخرية أكثر مما يثير الإعجاب، فمصر العروبة عملاقا، والفرعونية قمقم وأنى للعملاق أن يحتويه ذلك القمقم!

وأحسب أن الغضب من بعض المواقف العربية هو شيء مبرر، لأن مصر، طوال مسيرتها الفكرية والأدبية والثقافية، لم تكن في يوم من الأيام غازية وإنما كانت تحمل مشعل التنوير، وعندما كان ثوار الجزائر يقتنون خلسة سلسلة العبقريات الإسلامية التي أبدعها قلم وعقل عباس العقاد، لم يكن ذلك غزوا، وعندما تطوع عبد الرحمن عزام ورفاقه من زعماء حزب مصطفى كامل للقتال إلى جانب الأشقاء الليبيين ضد الاحتلال الإيطالي لم يكن ذلك غزوا، وغنما كان نضالا عربيا (مصريا) خالصا. لكن الحكمة تقضي بألا يتجاوز الغضب

حدوده، لأنه – في النهاية – غضب الأشقاء الذي يفرض غـض البـصر عن الصغائر.. كما يفرض في ذات الوقت البحـث عـن الأسـباب التـي أدت إلى احتقان بعض الأجواء.. ولابد أن نتذكر أن هذا الاحتقان ليس حكرا علينا، فاوروبا التي بدات مسيرتها الوحدويـة في تـاريخ متـزامن معنا، لم تسلم من اهتزازات كادت تعصف بالتجربـة الاندماجيـة التـي تسعى إليها منذ أكثر من نصف قرن..

وعلينا أن نتذكر أنهم كانوا (ومازالوا) يحلمون بالولايات المتحـدة الأوروبية والقوميون المصريون كانوا يحلمون – هم أيضًا – بالولايـات المتحدة العربية والفارق بيننا أنهم لم يفقدوا البوصلة بينما نحـن فقـدناها فضاع المركب أو كاد..وها هم دعاة الفرعونية يكرسون هـذا الـضياع! ويخلطون كل الأوراق، فالجامعة العربيـة لـن تهـدم – هكـذا يقولـون- وإنما سنقوم بتغيير اسمها لتكون جامعة الدول الناطقة بالعربيـة! أسـوة بالفرانكفونية التي تضم كندا إلى أمريكا الشمالية إلى الـسنغال وبوركينـا فاسو في إفريقيا السوداء!! وفي هذه الحالة لن نعـدم مـن يتحمـسون إلى فكرة شيمون بيريز التي تحدث عنها قبل سنوات والخاصة بإقامة جامعة شرق أوسطية بدلا من جامعة الدول العربية.

أريد أن أنهي بأمرين:

الأول: أن الجميع يتبارون لهدم جامعة الدول العربية، برغم أنها – بكل عيوبها – هي الشكل الوحيد الذي يضم العرب وبدلاً من دعمهـا وتقوية شوكتها يحمل مثقفونا معاولهم لهدمها.

الثـاني: أن مـسيرة الفكـر القـومي وإن لم تعـد صـورتها الـسياسية حاضرة في أذهان القادة وداخل أجنداتهم، فليس معنى ذلـك أن نعلـن انتحار الفكرة القومية، فمصر ستظل قلب العروبة النابض، لأن عروبـة هذا البلد ليست شيئًا منفصلاً عنها.. وليس بوسع شـخص أو نظـام أن يقضي على العروبة وإنما هي التي ستقضي عليه.

فصل ثان
تهافت المثقفين!

جـواز سـفر ثقافـي!

لمعت هذه الفكرة في رأس كاتب فرنسي يدعي تيري فـابر وتنطلـق من قناعة مؤداها أن الثقافة هي أصل الأشياء، وأن أي حـراك في العـالم منشؤه الأفكار والدليل علي ذلك أن أي عمل عظيم (أو خبيـث!) كـان في الأصل فكرة دارت في رأس أحدهم.. ولذلك أراد هـذا الكاتـب أن تعود عجلة القيادة إلي أصحابها بعد أن لاحظ أن المثقف قد تقاعس عن أداء دوره التنويري وتراجع إلي الوراء تاركًا الساحة الفكريـة والثقافيـة لرجال السياسة يحركون فيها (الأشياء والأحـداث) كـما يحركـون قطـع الشطرنج بأصـابعهم.. واحتـل المثقفـون مقعـد (التـابع) الـذي يـسير معصوب العينـين وراء الـسياسيين دونـما رغبـة في نقـاش أو حـوار أو جدل.

وفكرة جواز سفر ثقافي تأتي أساسا من قاعدة يرتكز إليها نفـر مـن المهمومين برسالة المثقف التـي تتجـه إلي الإنـسان ـ أي إنـسان ـ بغـض

النظر عن لونه أو عرقه أو دينه والتي صاغها البعض - وهم علي حق - في مصطلح المثقف الكوني.. فالمثقف الأوروبي يجب أن يكون (مشغولا) بل ومؤرقا لما يحدث من إبادة للشعب الفلسطيني علي أيدي قوات الاحتلال الإسرائيلي، بنفس القدر الذي يكون مهموما فيه بالصراع بين جورجيا وأوستنيا الجنوبية الذي حصد المئات وأعاد إلي الأذهان الصورة المقيتة للحرب الباردة بين القوي الكبرى. ثم إن هذا المثقف (ذاته) يجب أن يكون معنيا بأوضاع مواطنيه في القارة العجوز، وكذلك بأوضاع المهاجرين لأنهم بشر ويهمه أمرهم.

وعلي الطرف الآخر، فإن المثقف في العالم الثالث يجب أن يكون مسكونا بهموم البشر في أركان الدنيا الأربعة.. فأحوال الناس في أمريكا اللاتينية، واستراليا، وشمالا في سيبيريا، وتركيا، وجنوب شرق آسيا.. كلها أمور يتعين أن تنعكس علي صفحة نفسه وضميره.. والثابت أن هناك من يميل الي اعتبار هذا التصور شكلا من أشكال الفكر الطوباوي أو الخيالي أو لعله من مفردات المدينة الفاضلة التي حدثنا عنها الفيلسوف العربي الفارابي أو أفلاطون في جمهوريته التي لم تتحقق علي الأرض بعد.. ويرد المتحمسون لفكرة (المثقف الكوني) بقولهم، إن أحدا لا يختلف حول واحدية العالم، وتعددية العلوم، ووحدة البشر، وتنوع الأجناس البشرية.. وهي ذات العناصر التي تتأسس عليها فكرة المثقف الكوني، فلماذا لا نحلم بأن يصبح هذا النوع من المثقف واقعا ملموسا.. فضلا عن أن الثقافة هي السماء التي تظلل الجميع ولذلك تري في التنوع والاختلاف ثراء وفي التعددية زخما يضيف للجنس البشري ولا ينقص منه.

ولكي نصل إلي هذا الحلم الإنساني علينا أن نعمل جاهدين كي يستعيد المثقف مكانه وراء عجلة القيادة، وأن نسهل حركته، ونحرره من القيود التي تكبل فكره وتحول دون تنقلاته.. ومن هنا جاءت فكرة جواز سفر ثقافي يستخدمه المثقفون والعلماء والمفكرون في تنقلاتهم خصوصا في الأسفار التي يكون الهدف منها المشاركة في المؤتمرات العلمية والثقافية.. وبهذا المعني يلغي هذا الجواز الثقافي (مؤقتا) الجواز القُطري الذي يحمله المواطن العادي ويكون ممهورا بأختام دولته.. لكن الجواز الأول يكون (عالميا) وقد يحمل ـ ضمن بعض الرؤى والتصورات ـ أختام منظمة التربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) باعتبارها الهيئة الدولية المهمومة بقضايا الثقافة والاتصال وزرع ثقافة (السلام وقبول الآخر) في عقول البشر.

ومما يرجح هذه الفكرة الطوباوية أن أحدا من المثقفين في العالم لم يثبت تورطه في عمل إرهابي، وأن الثقافة بمعناها الواسع ترفض التطرف والانغلاق والقطرية الشوفينية، وتري أن المساواة بين البشر (حقوقا وواجبات) هي أبجدية التعاطي الصحيح مع قضايا الإنسان أينما حل أو ارتحل.. ناهيك عن أن الأزمات الخانقة التي تحاصر البشرية وتتسع دوائرها يوما بعد يوم تفرض بإلحاح أن يتحرك ذوو الرأي والبصيرة المتفتحة (وهم هنا المثقفون الكونيون) لتضييق مساحة هذه الأزمات والحيلولة – قدر الإمكان – دون تردي الأحوال، والانتصار للحوار ليكون بديلا عن سياسات القمع والنفي وإلغاء الآخر،

والاحتفاء بمن يقول لا في إطار الإيمان بحق الإنسان في التعبير عن رأيه ضمن منظومة (الأنا والآخر) التي تمثل قاعدة (ومنطلقا) للثقافات والحضارات منذ فجر الإنسانية وعبر العصور والأحقاب الزمنية المتلاحقة.. وفي حال تحقق هذا الحلم سيشعر المثقف بأنه أصبح محط أنظار الجميع، وتتعلق به آمال المضطهدين والفقراء، والمهمشين، ودعاة الأمن والاستقرار في العالم، وسيلقي - والحال هذه - حفاوة واستقبالا في مطارات العالم بمجرد أن يبرز جواز سفره الثقافي، و سوف تفتح له - ربما لأول مرة - صالات كبار الزوار تقديرا لدوره، وتسهيلا لتحركاته واقتناعا كاملا بالدبلوماسية الثقافية التي يمثلها ويقوم بها في ذات الوقت.. خدمة للإنسانية ورفعا للظلم الذي يقع علي بعض الشعوب أو الشرائح المجتمعية في هذه الدولة أو تلك.. إن رسالته ـ في هذه الحالة ـ ستكون أشبه بالرسالة السماوية التي لا تفرق بين أرض وأرض أو شعب وشعب وإنما تستهدف البشرية جمعاء.

وإذا تعمقنا أكثر في فكرة المثقف الكوني بجواز سفره الثقافي فسنجد أنفسنا قطعا أمام مؤتمرات وندوات تكون لتوصياتها سلطة وجوبية نافذة، وأمام جولات مكوكية لمثقفين يحملون ذات الملفات التي يحملها وزراء خارجية الدول، ولذلك كانت اليونسكو علي حق عندما ناقشت هذه الفكرة في مؤتمر الثقافات علي ضفاف المتوسط وأوصت بأن يتم التنسيق بين وزراء الخارجية ووزراء الثقافة في العالم، وصولا إلي بلورة فكرة المثقف الكوني التي ستمر حتما عبر حل أكثر من إشكالية

علي رأسها تعريف: من هو المثقف الذي يستحق أن يعبر حدود العالم بجواز سفر ثقافي دون أن يعترض طريقه موظف أمن أو جوازات أو جمارك..! وليس من شك في أن قضايا العالم الثالث ستفوز ـ والحالة هذه ـ بنصيب الأسد من اهتمام هذا المثقف الكوني المنتظر أو المأمول. وهنا تحضرني العراقيل التي وضعتها إسرائيل – مثلاً – أمام المواطن الفرنسي العالمي جوزيه بوفيه – زعيم حركة مناهضة العولمة – عندما زار الأراضي الفلسطينية مع نفر من زملائه ليعلن تضامنه الفعلي مع المحاصرين الفلسطينيين في غزة.. وأظن أنه في حال إبراز جوازات السفر الثقافية فسوف يفسح الطريق أمامهم إلا إذا أصرت إسرائيل علي عنادها وانتهاكها الدائم لكل القوانين والأعراف الدولية.. وفي هذه الحالة، لن يفيد جواز سفر ثقافي أو دبلوماسي!

الشيء الآخر الذي يقفز إلي الذهن مباشرة إثر التفكير في هذه القضية، هو أن المثقف العربي سوف ينظر إلي فكرة جواز السفر الثقافي علي أنها(فانتازيا) أو رفاهية لا علاقة له بها من قريب أو من بعيد، لأنه حتى اللحظة يعاني سوء حاله في وطنه، ويحرم في أغلب الأحيان من الحصول علي جواز سفره كمواطن، وتحوم الشبهات حول تحركاته.. ويحارب في لقمة عيشه ما لم يتم (تدجينه) وإدخاله إلي الحظيرة الرسمية التي يضع حدودها ويرسم سقفها وزراء الثقافة العرب. وعليه أن يعيرهم عقله.. فيفكر وقتما يشاءون في القضايا التي يريدون وإلا سيجد نفسه ملعونا أو علي الأقل مغضوبا عليه، ليجد نفسه في حال أشبه

بسيزيف الذي غضبت عليه آلهة اليونان، وجعلته يمضي بقية عمره في دفع الصخرة إلي أعلي الجبل، ويتركها تتدرحج إلي أسفل ليعود إلي دفعها حتى يموت.. والصخرة هنا هي لقمة العيش التي سيجد المثقف العربي نفسه مضطرا إلي البحث عنها ليقي أولاده شرور الجوع والعري..

تري هل سيتحمس وزراء الثقافة العرب إلي فكرة جواز السفر الثقافي هذه، وهل سيقبلون ـ بالأساس ـ منطق وفلسفة المثقف الكوني؟ الإجابة صعبة بعض الشيء. أليس كذلك؟!

أين العقل العربي مما يحدث حولنا؟!

يشهد العالم حاليًا واحدة من أصعب وأدق مراحله، فالعولمة التي ظن البعض أن التاريخ سيقف عندها، وأن العقل الإنساني سيطوي صفحة إبداعاته بعدها باعتبارها سدة المنتهي في التفكير العقلي. أقول إن هذه العولمة تحتضر وسوف تتحول حتما إلي جثة هامدة.

الأخطر من ذلك أن النظام الرأسمالي الذي تعتبر العولمة إحدى مراحله يتعرض اليوم إلي اعنف انتقادات من داخله.. خصوصا بعد أن تحول إلي نظام يؤوي المحتكرين، ويعلي من شأن المضاربات، وحوّل الثقافة إلي سلعة، والإنسان إلي تجارة.. والفكر إلي شكل من أشكال الفانتازيا.

والثابت أن ثمة تحولات كبري يقف العالم علي أعتابها وتتعلق بمختلف أشكال النشاط الإنساني.. إلي حد أن الثوابت قد أصبحت في مهب الريح.

ولأننا اعتدنا أن نكون مستقبلين للأحداث وما يتمخض عنها من نتائج، فالمحقق أن زلزال الأزمة المالية الذي هز أمريكا والدول الغربية ثم امتد ليشمل بقية الكرة الأرضية سوف يستتبعه زلزال في السلم القيمي.

فما كان يتحقق حوله إجماع في السنوات الأخيرة، لن يكون حاله كذلك في المرحلة المقبلة.. ولذلك لابد أن نتوقع انطلاق سلسلة من المراجعات للنجاحات والإخفاقات التي حدثت في العقدين الأخيرين اللذين توحشت فيهما العولمة إلى حد بات فيه تسليح الأخلاق والقيم والسلوكيات أمرا مألوفا.

وليس من شك في أن هذه المراجعات سوف تطال كل شيء بهدف إعادة اكتشاف العالم والإنسان.. باعتبار أن علاقة الثاني بالأول هي عتبة البداية في كل أمور الحياة.

والمحقق أن الأجواء الثقافية والفكرية في الغرب قد استعدت لهذه التحولات، الجذرية التي ستعصف حتما بكل المعادلات الحاكمة لمنظومة الحياة الإنسانية برمتها فهناك من يتحدث عن ضرورة العودة للجذور مرة أخري، وإلى جانب آخرين يتحدثون عن الشطط الذي لحق بمسيرة الفكر الإنساني في صورته الغربية.

وظهر مجددا فريق يدعو إلى هدم النظام الرأسمالي بقضه وقضيضه والبحث عن نظام يكون أكثر عدلا وإنصافا للإنسان والمواطن.

وبين هـؤلاء وهـؤلاء ارتفعـت أصـوات تحـذر مـن الكفـر بقـيم الرأسمالية وتذكر أن هذا الزلزال الذي ارتجت لـه أوصـال المجتمعـات الغربية لا يعني أن الرأسمالية قد سقطت وإنـما يعنـي أنهـا في حاجـة إلي تقويم أو تصويب.

أيا كان آخر هذه الطروحات، فالثابت أنها حركـت الميـاه الراكـدة التي طالما طمست ملامح الفكر الإنساني الشامل والـذي ظـل يعمـل ـ منقوصا ـ منذ غياب الفكر الاشتراكي وتقلصه داخل إمبراطوريته التي كانت لا تغيب عنها الشمس.

الفكر الغربي ـ حسبما يبدو لي ـ بـات أكثـر اسـتعدادا للتعامـل مـع نتائج هذا الزلزال بإيجابيـة. وبتنـا نرصـد حالـة مـن حـالات العـصف الفكري، تملأ ساحات البحث والفكر.

والمؤلم أن العقل العربي لا مكان له وسط هذه الضوضاء وكـأن مـا حدث في الاقتصاد والسياسة ـ لا يعنيه وحـسبه أنـه ارتـضي لنفـسه أن يكون عالة علي حصاد الفكر العربي.

ولا يهم إن كان سينعم بخيرة أو يكتوي بناره، فـالأهم بالنـسبة لـه هو أن يظل غارقًا في النوم وحالمًا.

تهافت المثقفين!

أُسَارِع بالقول إنه ليس من حق أحد – ديمقراطيا – أن يصادر حق أي مواطن في التظاهر السلمي، وإبداء اعتراضه علي سياسة معينة في بلده، أقول ذلك قبل أن يتهمني أحد بما ليس صحيحًا. وسؤالي الآن: أين مصلحة مصر العليا في ظل هذا الهياج، وتلك الاشتباكات التي تحدث عند مكتب وزير الثقافة.

وقد يحلو لنفر أن يقول أن الجماعة الثقافية في مصر هي التي تحتج، وتعبر عن عدم رضائها تجاه الوزير(*). وأقول إن أحدا في مصر لا يمكن أن يتحدث باسم الجماعة الثقافية. وليس معني أن هناك بعض مشاهير الكتاب أو المبدعين بين المعتصمين أو المحتجين أن الجماعة الثقافية أصبحت ممثلة في هذه المظاهرات. فهناك مئات من مشاهير

(*) نفر من الجماعة الثقافية قد تجمع أمام مكتب وزير الثقافة الإخوانى في الزمالك.

الكتاب يرفضون هذه الوقفات لكن وسائل إعلامنا الميمونة لا تسلط عليها الأضواء.

وحتى هذه اللحظة لا أحد يعرف ما هو سر الاعتراض علي وزير الثقافة. هل لأنه جاء من بين آلاف الأكاديميين في مصر... هل لأنه لم يصدر في حياته العلمية سوي كتابين.. هل لأنه لم يكن معروفا؟!

وأقول هل كان الفنان فاروق حسني معروفا وقت اختياره وزيرا للثقافة. لا والله لم يكن معروفا، وقد أحتج الراحل عبد الرحمن الشرقاوي عليه، وكذلك الفيلسوف الراحل زكي نجيب محمود، واختلف معهما لويس عوض الذي زرر الجاكتة ودخل يهنئ الوزير الجديد علي اختيار حكومة مصر له.

أقول لقد انقسم مثقفو مصر، كما هو الحال الآن بين مؤيد ومعارض، والسبب أن الوزير لم يكن معروفا؟

وهل يعلم المحتجون أن أحمد لطفي السيد ـ الذي كان معروفا في زمانه رفض أن يكون رئيسا لمصر... كما رفض زكي نجيب محمود أن يكون وزيرا للثقافة في حينه.. واستقال الدكتور جابر عصفور من منصب وزير الثقافة لأنه يري أن الإدارة مضيعة للوقت.!..

أرجو أن يعلم الجميع أن الوزير الجديد أراد أن يكون جديدا فقام بتغيير رؤساء القطاعات والأقسام في وزارته.. وهذا من حقه.. وأراد أيضا أن يبدأ صفحة ثقافية جديدة.. فأين الضرر، وأين الضرار؟

وكم من وزير لم يتم سوي تغييره.. وظل الصف الثاني والثالث في الوزارة، كما هو.. فخرجت الاحتجاجات من هنا وهناك ترفض

ذلك... بل هناك من يري أن ثورة ٢٠ يناير لم تغير سوي رئيس الجمهورية السابق وبطانته.. أما الباقون - الفلول - فظلوا في مقاعدهم.. لم يعترف الوزير الجديد. وزير الثقافة بذلك ـ إنما لأنه رأي أن يتعاون مع آخرين، وأن يقوم المعوج.. فهل يحق أن نقف في وجه من يريد وجوها جديدة.. وأن يري أن الثقافة هي ثقافة الشعب المصري.. وليس حكرا علي مخرج أو مبدع أو فنان تشكيلي أو كاتب بعينه.

الهدف في رأيي أن يكون وزير الثقافة الجديد كبش فداء. لأن هذا الفصيل ينتهي بما ينبغي أن ينتهى إليه النظام السياسي.

وأعترف أنني لا أوافق النظام السياسي (الإخوانى) في كل خطواته لكنني أضع مصلحة مصر العليا فوق كل اعتبار!

والسؤال الذي لم أستطع منه مهربا هو: أين كانت الجماعة الثقافية المصرية عند ما قال وزير ثقافة سابق.. لقد وضعنا مثقفي مصر في الحظيرة، وأين كانت هذه الجماعة بعينها عندما كان وزير ثقافة سابق مسئولا. عن قتل أكثر من٥٥ شخصًا في بني سويف (حرقا).. وأين كانت الجماعة الثقافية إياها عندما سخر وزير ثقافة سابق من حجاب المرأة واعتبره علامة من علامات التخلف.. وأين كانت هذه الجماعة الثقافية الميمونة عندما ردم وزير سابق نهر النيل ليشيد عليه قصرًا فنيًا.

لقد اعترض البعض ـ هذا صحيح ـ لكن عندما جاءهم اتصال هاتفي من أعلي صمت الجميع، وظللنا نبحث عن هذه الجماعة الميمونة. فلم نجد!.

إن ما يحدث – يا قوم – عند مكتب وزير الثقافة أمر غير مسئول، وسوف يضر بصاحبه.. ويضر بالجماعة الثقافية ذاتها التي تركت كل شيء ووقفت تنادي بإقالة لا أقول الوزير فقط – لكن تنادي بإسقاط النظام، وتعترض علي سياسة الدولة.. إننا لا نريد أن نقول ما سبق أن قاله الكاتب الفرنسي ريجيس ديبريه في كتابه (المثقفون الفرنسيون) البداية والنهاية من أن المثقفين فئة ضالة ومُضللة لأنها تضيع وقت الناس، فيما لا طائل منه!.

وهم قوم ضرب الشيب مفرقهم وفقدوا دورهم التنويري، وأصبحوا أشبه بقلة فقدت الذاكرة، فلا هدف لهم ولا معني لوجودهم!.

مرة أخري لا نريد أن نقول ذلك... فقط نرجو أن يعود المثقف المصري لدوره التنويري أو التحذيري، وألا يكون ما حل يساعد في الهياج الذي يضر أكثر مما ينفع.. لقد حكموا علي الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي بـ ٢٠ ألف جنيه غرامة.. لم نسمع مثقفا واحدا ينتمي لهذه الجماعة الثقافية يدافع عن الرجل من ظلم حاق به. باختصار لقد تهافت المثقفون أو بعض المثقفين عندما احتكروا الثقافة ونسوا بقية الفصائل الثقافية... نفس الشيء الذي يتهمون به نظام (الإخوان).. الذي حيد بقية الفصائل الشبابية، واحتكر السلطة لنفسه.

فما أشبه يوم الجماعة الثقافية ببارحة الإخوان!.

مظاليم «جوائز الدولة التقديرية»

يبدو أن ما كتبناه حول المفكر المصري الكبير لويس عوض، قد نكأ جراحًا ظنها البعض قد اندملت، وأعترف أن ردودا كثيرة قد أسعدتني، لأنها كشفت أن مأساة هذا المفكر يعرف الكثيرون بعض تفاصيلها، لكنهم لا يريدون الخوض فيها، ربما لأن في أفواه بعضهم ماء.

فلويس عوض – في كل الأحوال – لم يلق الحفاوة التي يستحقها في حياته وبعد مماته، ولقد ناصبه العداء نفر من النافذين – في زمانهم – دون ذنب أو جريرة، وأخص بالذكر الأديب الراحل ثروت أباظة، الذي كان لا يترك مناسبة إلا ويكيل الغمزات واللمزات والطعنات إلى لويس عوض، ويصفه في «كتاباته» بعميد الحقد العربي.

ولقد نسج على منوال ثروت أباظة نفر ممن كانوا يخشون بأسه أو يطمعون في دعمه أو يأكلون على موائده، فكان كل همهم رصد تحركات

الدكتور لويس، والدس له في المحافل الأدبية والثقافية، وكان من بينهم من أشعل النيران عندما رأت مجموعة من المثقفين الأوفياء أن الدكتور لويس عوض يجب أن تكون جائزة الدولة التقديرية من نصيبه، ويرى أحدهم أنه ذهب إلى الدكتور لويس يطلب منه السماح لهم بترشيحه إلى الجائزة، فرفض فى إباء وقال بصوت عال مرتين: لا أريد شيئًا من الحكومة!

فأقنعه مُحدثه بأن هذه الجائزة من تلاميذه ومعشر المثقفين المصريين وليست من الحكومة، وفى الاجتماع العام بادر ممثلو الإخوان المسلمون بترشيح المغفور له الشيخ الشعراوى ليكون «منافسًا» للمفكر الدكتور لويس عوض، وهتف أحدهم وقال مُستاء: كيف ترشحون قبطيًا! وكأن هذا القبطي ليس مصريًا، وغاب عن باله أنه يستحق هذه الجائزة، بل ما هو أكثر منها مثنى وثلاث ورباع!

وحدث سجال ساخن بين تلاميذ لويس عوض كان من بينهم د. سمير سرحان، وبين الإخوان المسلمين، وكانت المفاجأة أن النتيجة جاءت قاصمة لظهر خصوم لويس عوض عندما حصل على أعلى الأصوات «٣١ صوتًا» في الجلسة الأولى.

ويُروى أن مستشار الرئيس د. أسامة الباز، هو الذي اتصل بالدكتور لويس عوض في باريس -حيث كان يُعالج- ليخبره بفوزه بالجائزة، وكان الإخوان المسلمون قد ارتفع ضجيجهم - في ذلك الوقت – مُطالبين بسحب جائزة الدولة التقديرية من هذا المفكر الكبير.

الثابت عملاً -رغم أنف الرافضين- أن لويس عوض يستحق الجائزة منذ سنوات وسنوات، لكنها أبت إلا أن تزحف إليه وهو يقف على أعتاب رحلة نهاية العمر، مر الرجل في حياتنا كالشهاب الذي لمع لبعض الوقت، وأضاء دُنيانا الثقافية والفكرية «حينًا» من الدهر بعلمه ووهجه المعرفي، ثم رحل. وها نحن اليوم نبحث عن شارع في مدينة أو مُدرج ومكتبة في جامعة أو زقاق في حارة يحمل اسمه فلا نجد، بينما بُغاث الطير (ومن خف وزنهم العلمي والفكري) يسيطرون بأسمائهم وتماثيلهم على كل الأماكن.

هذا الظلم البين الذي وقع مع سبق الإصرار والترصد على د. لويس عوض، وقع أيضًا، وفى فترات مُتباعدة، على نفر من أصحاب القامات الكبرى في دنيا الأدب والثقافة في مصر المحروسة، مما جعل عددًا من المثقفين المصريين يشعرون بالخجل إزاء هذه الحال البائسة فوضعوا قائمة أطلقوا عليها، قائمة مظاليم جائزة الدولة التقديرية وتضم أسماء لامعة في أرض الكنانة، وإن لم تكن كذلك في موازين هذه الجائزة التي يتلاعب بها المطففون - وهم كثر - لغرض في نفس يعقوب!

من هذه الأسماء: د. يوسف إدريس، والفنان صلاح طاهر، ود. عبد الرحمن بدوى، ونجيب محفوظ، وثروت عكاشة، وقيل إن أكاديمية الفنون في زمن رئاسة الدكتور فوزي فهمي، هي التي وضعت هذه القائمة وأخذت على عاتقها ترشيح هذه العقول والمواهب المصرية

الكبرى، وكلنا يعلم أن الفيلسوف الدكتور عبد الرحمن بدوى، ما كان له أن يفوز بجائزة مبارك للعلوم الاجتماعية لو لم يرشحه مجلس الأكاديمية، وكانت جامعتا القاهرة وعين شمس قد امتنعتا عن ترشيح الدكتور بدوى، مما دفع أكاديمية الفنون إلى أن تنهض بهذه المسؤولية الحضارية وتهتم بكل الشموع التي أضاءت خارج الإطار المدرسي أو الجامعي أو الأكاديمي فرشحت بهاء طاهر، ومحمود أمين العالم، وفاروق خورشيد، وعلى الراعي، وألفريد فرج، ولطفي الخولى، وفتحي غانم، ولطيفة الزيات، وغالى شكري وصلاح أبو سيف، وسعد أردش، ويوسف شاهين، وجلال الشرقاوي، وتوفيق صالح، وعبد السلام الشريف، ومنير كنعان، ومحمود الجو هرى، وفؤاد زكريا، و أنور عبد الملك، وآدم حنين، وإدوار الخراط، وجاذبية سرى، وميلاد حنا.

ماذا يعنى هذا الكلام؟ يعنى أنه بات يتعين إعادة النظر في قواعد الترشيح واللجان المنوط بها فحص الملفات، والتي بدا حسبما ظهر جليًا في حالة د. لويس عوض - أن انخراطها في تيارات وتحزبات سياسية ودينية جعلها تبدو في صورة غير بريئة تنقصها النزاهة والشفافية.

ناهيك عما يتردد عن خضوع لجان التحكيم لإرشادات «تأتى من عل» وتوصى بفوز «فلان» دون «علان»، حتى لو كان لا يستحق الفوز، وهو ما حدث - فعلاً لا قولاً - عندما عبث المطففون في الميزان، فرجحت كفة أحد الصحفيين (وهو أنيس منصور) وخسر الدكتور العلامة شوقي ضيف، المُلقب بحارس الفكر الأمين على اللغة العربية.. وكان أمرًا فاضحًا وكارثيًا «لكن ما باليد حيلة».

لويس عوض.. عليه العوض!

معظم كُتّاب وأدباء ومفكري مصر ماتوا كمدًا أو غيظًا أو اكتئابًا، هكذا كان حال توفيق الحكيم الذي كان يحزنه أن تتقاضى الراقصة نجوى فؤاد - نجمة الرقص الشرقي في زمانها - آلاف الجنيهات مقابل (ساعة رقص!) والفيلسوف الراحل زكى نجيب محمود الذي هانت عليه نفسه (وزمانه) عندما أدرك - بعد فوات الأوان - أن أحدًا لم يكترث ولم يهتم.. بل لم يقرأ في الأصل كل ما كتب، فكان أن افترسته موجة من الاكتئاب أسلمته إلى غيبوبة لم تتركه حتى مات!.

وليس بعيدًا عن هذه الكارثة مفكرنا الراحل لويس عوض الذي كان يملأ الدنيا ويشغل الناس بفكره ونقده في الأدب والمسرح والفنون الإبداعية، بل أشرف - في حقبة زمنية زاهرة - على صفحة الأدب بجريدة الأهرام وكان يُصرّ أن يضع على رأس الصفحة عنوان: الأدب

من أجل الحياة، مؤكدًا بذلك قناعته بفلسفة الالتزام بمعنى أن الفن يجب أن يكون من أجل الحياة وليس من أجل الفن.

والحق أن المفكر الكبير لويس عوض هو واحد من أبناء أرض مصر، الذين انشغلوا بهمومها (صغارًا) ثم حملوا هذه الهموم على كاهلهم وفى قلوبهم (كبارًا)، وظلوا أوفياء لمصر وأهلها حتى فاضت أرواحهم.. لكن الأهم أنه لقي عنتًا شديدًا في حياته العلمية والعملية، ووقع عليه ظلم بيّن وحورب في لقمة عيشه، ونزل ضيفًا لأكثر من مرة على السجن، وخصه السجانون بعقاب إضافي لا لشيء ا لأنه المفكر الكبير لويس عوض.

ولقد روى لأحد تلاميذه وهو الكاتب الراحل مصطفى مرجان الذي أمضى في باريس سنوات عمره الأخيرة، أنه لجأ إليه ذات مرة بعد أن ضاقت به الدنيا وتكالبت عليه الهموم يسأله العون راجيًا إياه أن يتوسط عند ذوى النفوذ والسلطان في مصر كي يساعدوه في البحث عن عمل يتناسب مع مهاراته وتكوينه العلمي. ظل الدكتور لويس عوض يستمع إليه حتى اغرورقت عيناه بالدموع، فانخلع قلب مصطفى مرجان جزعًا على أستاذه مُعتذرًا عما سببه له من حزن.

فمسح الدكتور لويس عوض دموعه بطريقة طفولية لا تخلو من ألم، وقال وهو يربت على كتف تلميذه (مصطفى مرجان): لا تقلق يا صاحبي. فأنا بخير! لكنني وددت لو أسألك (ولعل هذا هو سر بكائي وحزني) لماذا تركت الدنيا كلها وجئت تسألني العون وتطلب منى

التدخل لمساعدتك.. ثم أضاف يقول في صوت يخنقه البكاء. ألم تعرف يا صاحبي أنني مضروب بالبرطوشة في هذا البلد، فلا وزن لي ولا مكانة! ثم قال وهو يدير له ظهره: لو ذهبت إلى أصغر وأقل إنسان في مصر لأمكنه أن يساعدك، أما «أنا» فلا أمل لك فيّ.

هذا الحال الذي رواه لي مصطفى مرجان ليس فيه أدنى مبالغة أو تجن، فالمفكر الكبير لويس عوض لفظته الطغمة الحاكمة في دنيا الثقافة والأدب والسياسة في زمانه، وتعمدوا تهميشه والتقليل من شأنه والاستخفاف به وبعقله وإنتاجه الفكري وكلنا يذكر الأصوات الخرساء! التي انطلقت ذات مرة تطالب وزارة الثقافة بأن تسحب منه جائزة الدولة التقديرية التي شرفت بلويس عوض أكثر مما شرف هو بها.

ووقتها قابل لويس عوض هذه العاصفة ببرود شديد، وكان أشبه بالطود الشامخ في مواجهة هذا الصغار، وليس سرًا أن هذه الأصوات استندت في دعواها المغلوطة إلى كتاب الدكتور لويس الشهير (فقه اللغة) وغاب عن بالهم أن الفكر لا يحارب بالإرهاب أو التفزيع ولا يقابل بالقمع وإنما بالحوار ورغم ذلك، فالمحقق أن هذا الموقف ترك (ندوبه) على قلب لويس عوض الذي عاش ومات من أجل الفكر، وكانت أمنيته الغالية أن يرى مصر في نهضة ورقى ورفعة. حدثني ذات مرة في باريس قائلاً: إنني يا ولدى لم أنجب أولادًا.. فكلكم أبنائي، وكان يحدثنا -في المركز الثقافي المصري الكائن بالحي اللاتيني بالقرب

من جامعة السوربون- عن عشقه لمصر وأهلها وكيف تكون المواطنة، وأن نحمل (مصر) في قلوبنا أنى حللنا أو ارتحلنا.

ولم يتردد أن يهاجم المستشرقين الذين يعملون من وجهة نظره (تروسًا) في ماكينة الاستعمار الغربي. وكان يطلب منا أن نتعلم في الغرب (المنهجية العلمية) في التفكير ثم نسارع بالعودة إلى مصر لكي نشارك في حركة النهضة التي كان يتمنى أن تتفتح زهورها يومًا بعد يوم في أرض الكنانة: ويروى تلميذه مصطفى مرجان -الذي أشرت إليه في أول هذه السطور- هذه الحكاية التي لا تخلو من مأساة، قال كان الدكتور لويس يحرص على زيارة باريس ليلتقي بصديقيه عالم النفس الشهير مصطفى صفوان (له عيادة تحليل نفسي في الحي اللاتيني) والناقد الراحل محمد مندور.

وفى إحدى هذه الزيارات التي اختار د. لويس أن تتزامن مع عيد الثورة الفرنسية في ١٤ يوليو.. التقى بفتاة فرنسية (ريفية) جاءت بدورها إلى العاصمة باريس لكي تحتفل بهذا اليوم الذي يرقص ويشرب فيه الجميع.

وبعد ساعات من التعارف والرقص في شوارع باريس اختفى لويس عوض عن أنظار صديقيه ثم عاد إليهما بعد يومين ليعلن أنه قرر أن يتزوج هذه الفتاة الفرنسية. ولم يتمكن مصطفى صفوان أو محمد مندور من إقناعه بالتريث، إذ بدا الأمر وكأنه قد انتهى لصالح رغبة لويس.

وفى القاهرة اكتشف المفكـر الكبـير أن زوجتـه تعـشق الحيوانـات والزواحف على وجه الخصوص، وبعد أقل من ثلاث سـنوات تحولـت شقته إلى ما يـشبه حديقـة حيـوان مُـصغرة مليئـة بالثعـابين والتماسـيح فاضطر أن يهجر الشقة واسـتأجر مكانًـا آخـر في شـارع قـصر العينـي. ليكون (خلوته) للقراءة والكتابة والتفكير.. وهكذا قدر للراحل لويس عوض أن يفتقد الـشعور بـالأمن والطمأنينـة في بيتـه الـصغير.. وبيتـه الكبير أيضًا!

شجرة الوظائف الـ V.I.P

مصر التي نعيش فيها (مصران) الأولى للأغنياء والمترفين وعددهم لا يزيد على مائة أسرة ولا يشكون من عوز أو حاجة أو بطالة دائـمًا، إذا كان لزامًا من شكوى فمن أمراض المرفهين التي يسهل السيطرة عليهـا، فالأموال مُتوفرة بالملايين.. ولأن كل شيء بات يُباع ويـشترى في أرض المحروسة، فأحلام سكانها تتحقق، ومطالبهم يُـستجاب لهـا، والمواقـع العليا والمُربحة في كل الوزارات والفروع تكون من نصيبهم.

أما مصر الثانية فهي مصر الفقـراء والمُعـدمين وعـددهم بـالملايين وهم عاجزون عن كل شيء، وأصبحت الأحلام في شريعتهم عصية بل حرامًا ينهى بعضهم بعضًا عن اقترافها.. والأسرة فيهـا مُثقلـة بـالهموم والديون رغم أن بطـون أفرادهـا خاويـة (جوعًـا) وأجـسادهم فريـسة للأمراض الفتاكة (مثل السرطان والكبد الوبائي والفشل الكلوي).

نعم مصرنا لم تعد كتلة صمّاء، ولا يمكن اعتبارها جسدًا واحدًا إذا اشتكى منه عضو تداعى له باقي الأعضاء بالحمى والسهر.. وإنما أصبحت (جنة) فيحاء لمجموعة من العائلات والانتهازيين والمتسلقين الذين ينعمون بكل شيء.. فوظائفهم محجوزة في وزارة الخارجية (مستشارون ووزراء مفوضون وسفراء). وفى جامعة الدول العربية يترأسون القطاعات والفروع ويحصلون على الامتيازات من كل لون وحجم ولا يهم إن كانوا على علم أو قدر من أدب.

وكم أود هنا أن نرسم معًا شجرة الوظائف في هاتين المؤسستين. لكي نكتشف العجب العُجاب، فأبناء وأحفاد كبار رجال الدولة يحتلون فيها المقاعد الوثيرة، ويتقاضون الرواتب بالدولار والإسترليني، ويركبون العربات الفارهة، وينعمون بالشقق الفاخرة في أحياء القاهرة الراقية، وبالشاليهات الرومانسية على شواطئ البحرين (الأبيض والأحمر).. ومنهم من تمتد ملكيته للعقارات في باريس ولندن ودبي والكويت.

ولم تجد هذه الـ (مصر) حرجًا من أن يشغل ثلاثة أخوة مواقع دبلوماسية في سفارات مصر في الخارج بعدما كان الأب سفيرًا في عاصمة آسيوية كبرى.

وستكون الفضيحة أعمق وأكثر إيلامًا إذا رسمنا شجرة الوظائف في الجامعة العربية التي تكتب سيدة (دبلوماسية) فيها كلمة التيار الإسلامي بحرف (الطاء) وتُطلق على اليهود اسم (اليهوديين!) وتعتقد

أن (مطوبس) في محافظة المنوفية، و(كفر البدماص) في الدقهلية نكتة مُقززة يقشعر منها بدنها النحيل.

هذه السيدة أمضت عشرين عامًا في مكتب جامعة الدول العربية في باريس وكانت تظن -ولا تزال- أنها مخلوقة من طينة أخرى غير طينة البشر العاديين. وعندما رسب ابنها في الجامعة الأمريكية واصل دراسته (مُستمعًا) ولا يحق له أن يدّعى أنه يحمل شهادة من الجامعة الأمريكية.. لكن لأن هذه السيدة ومن على شاكلتها تعتقد أن الرفاهية لم تخلق لغيرها.. فلقد تقدمت بأوراق غير صحيحة إلى التليفزيون لكي يشغل ابنها الوحيد موقع مُخرج! في أحد البرامج مع أنه لا يحمل أي شهادة علمية.

أما نظراؤه في مصر (الفقراء فيحملون شهادات من أكاديمية الفنون ولا يجدون عملاً لا لشيء إلا لأنهم ينحدرون من مصر (الأخرى) فلا حق لهم في حياة. أو حلم أو عمل.

يشكو فقراء مصر من أغنيائها الذين صادروا مصر لحسابهم وحساب أولادهم، وباتوا يشعرون أنه لا مكان لهم في أي مكان.. حتى الدويقة والعشوائيات طُردوا منها وأصبحوا يعيشون حياتهم مثل اللقطاء أو المنبوذين. كانوا قديمًا يقولون لا كرامة لنبي في وطنه، لكن الثابت عملاً أنه لا كرامة لمصري فقير في وطنه «فمعدومو» الدخل كُثر، والمهمشون في مصر المحروسة أكثر وأكثر، وقلوب الفقراء ملأى بالحزن والحقد، وتتأوه في صمت، لكن هذه التأوهات قد تتحول إلى

زفرات ولهيب حارق، (لتصبح حممًا تحرق الأخضر واليابس) وإن غدًا لناظره قريب.

لقد بات راسخًا أن نحو مائة أسرة قد خطفت مصر لحسابها، فهم في المؤسسات السيادية في الجيش والبوليس والقضاء والخارجية والجامعة العربية والبنوك العربية والأفريقية أما أبناء الفقراء فهم متنطعون على الأرصفة وضحايا للجماعات الإرهابية وأدعياء الدين والسلوك القويم! وبات هؤلاء يشعرون بأن مصر لم تعد بلدهم، فكل ما فيها لخدمة المائة أسرة وكفى!

وعندما جأر بالشكوى (يومًا) الشاعر الكبير فاروق جويدة لم يكن يصف غير الحقيقة عندما فضح الامتيازات المجتمعية والوظيفية التي أصبحت حكرًا على نفر من السعداء وذوى النفوذ والحظوة.. أما فقراء مصر ومعدموها، فلهم الموت جوعًا أو ظلمًا لا فرق.. ارسموا معي شجرة الوظائف التي شغلها علية القوم وأولادهم لتكتشفوا أننا في دولة لا يحكمها غير قانون (الغاب) فالرغد والرفاهية للأقوى والأغنى والأطول ذراعًا، أما الذل والهوان والموت الزؤام فهو من نصيب دود الأرض، أقصد فقراء هذا البلد الذين يخافون يومًا يموتون فيه فلا يجدون مكانًا يوارون فيه أجسادهم وقد تحولت جثثًا وهم أحياء! مصر الفقراء تتسع دوائرها، وتمتد أذرعها يمينًا ويسارًا بينما مصر الأغنياء تتقوقع على ذاتها، وتتدثر بالثروات التي تحصل عليها (ارتضاء أو اغتصابًا) ولسكانها وحدهم طيب الحياة، ولين العيش، أما الفقراء

الذين يشبهون في زحفهم (الديدان!) فقلوبهم حزينة ولا أمل يدغدغ مشاعرهم المستنفرة (ضيقًا وتبرمًا).. وأخشى ما نخشاه أن تتحول إلى جلمود صخر يهبط على رؤوس الأغنياء المترفة فتجعلها تتساوى بالأرض والطين!!

حرية الفكر المفترى عليها

يعلم الله أن عبارة قبر لكل مثقف - التي هي في الأصل عنوان كتاب شهير لمفكر فرنسي يدعي جان فرانسوا ليوتار- ظلت تطاردني في يقظتي ونومي منذ تفجرت أزمة الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي، إثر صدور حكم قضائي كان من تفاعلاته أن أصبحت منقولات بيت الشاعر في المزاد العلني!

وتساءلت أين المثقفون والكتاب، وأصحاب الأقلام ورواد التنوير؟.. وهل يكفي أن يصدر رئيس اتحاد الكتاب بيان شجب واستنكار ثم ينتهي كل شيء؟.. أو أن يهمس بعضهم معربا عن أسفه أو أن يتصل نفر في الحقل الثقافي بالشاعر مواسين معزين ليكتشف أحمد عبد المعطي حجازي أنه - بعد كل ذلك أو رغم كل ذلك - يواجه العاصفة وحده، وجريمته النكراء هي أنه مارس حقه في التفكير!!

وغاب عن بال المسكين أن الدنيا لم تعد تطيق أهل الفكر المستنير بعد أن امتلأت بالبوم والغربان، التي تنعق ليل نهار، تارة باسم الدين، وتارة أخري باسم السياسة، وتارة ثالثة باسم الجنس.. والناس تشتهي كل ذلك وتتكالب عليه في كل مكان.. نعم غاب عن بال أحمد عبد المعطي حجازي (صاحب مدينة بلا قلب) أن محاكم التفتيش تملأ الأرجاء ويجلس علي منصتها أدعياء من كل لون وصنف يطلقون اللحى، وتتدلي من أيديهم المسابح ويشعوذون علي طريقة الممثل محمد سعد في فيلمه الشهير كركر!!

ولست أشك لحظة واحدة في أن صدمة الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي (في مثقفي مصر) كبيرة، وثقيلة، ومرهقة، ولعله تذكر صديقه المفكر الفرنسي ريجيس دييريه عندما شخص ذات مرة حال المثقفين في بلاده، فقال: إنهم قوم ضرب الشيب مفرقهم، وفقدوا دورهم التنويري النبيل، وأصبحوا أشبه بقلة من البشر فقدت الذاكرة، فلا هدف لهم ولا معني لوجودهم!

ومعروف عن ريجيس دييريه أنه مر بتجربة صعبة، كان أحوج ما يكون فيها إلي دعم المثقفين، لكنهم تركوه وحده - كحال شاعرنا أحمد عبد المعطي حجازي - يواجه جبروتا فخرج بقناعة لا تتزحزح قيد أنملة يقول فيها:

إن المثقفين فئة ضالة ومضللة لأنها تضيع وقت الناس فيما لا طائل منه، وهم أشبه بعصابات من الأنذال والعميان واللئام، وكل ما يكتبونه ليس أكثر من أكاذيب وبطولات زائفة!

وعندما سئل ديبيريه عن المثقفين الجادين أجاب: إنهم قد انقرضوا ولم يعد يعيش بيننا سوي الدجالين!

هنا لابد أن أعترف بأنني لست في معرض المقارنة بين واقع المثقفين في فرنسا (في هذه الفترة التي تحدث عنها ريجيس ديبيريه) والمثقفين في مصر، بقدر ما يهمني تأكيد أن حالة الإحباط الشديد تمثل قاسما مشتركا بين الرجلين.. فلا شيء بات يؤرق المثقفين أو يهزهم أو يؤلمهم.. فمعايير الإبداع قد تحللت وذابت ولم يعد أحد ينتصر لجدية الفكر.. وقديما قال فولتير: قد اختلف معك في الرأي، لكنني علي استعداد أن أضحي بنفسي من أجل حقك في التعبير عن رأيك.. ونذكر في حياتنا الثقافية أن عباس العقاد وقف في البرلمان المصري يدافع عن حق طه حسين في أن يكتب ويفكر رغم اختلافه سياسيا معه، كما هدد أحمد لطفي السيد بالاستقالة من منصبه كرئيس للجامعة المصرية إذا مس أحدهم طه حسين بسوء.

ويذكر تاريخ الأدب العربي المحاكمة التي أقيمت لطه حسين بسبب كتابه في الشعر الجاهلي، وانتصر فيها وكيل النائب العام محمد نور منحازا إلي حرية الفكر والتعبير، ورفض الوصاية علي المفكر من أي طرف.. وعادت قضية طه حسين إلي دائرة الفكر والاجتهاد، فظهرت عشرات الكتب ترد عليه وتفند أفكاره ورؤاه.. وهذا ما كنا نوده ونتمناه في حالة الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، لأن الفكر لا يقاوم بالقوانين والأحكام، وبيع الأثاث والمنقولات، وإنما بالفكر.

ومثلما نتباهى اليوم بوقائع محاكمة طه حسين، ونرويها بفخر لأبنائنا في المدارس والجامعات، يؤلمني أن أقول إن ما حدث مع أحمد عبد المعطي حجازي سنخجل من أنفسنا إذا اضطررنا أن نرويه.. فهذا الرجل شاعر من الوزن الثقيل، ويعتبر من رواد حركة النهضة والتنوير والتحديث، وكان يعمل أستاذًا لمادة الشعر في جامعة باريس (السوربون)، وتتلمذ علي يديه مئات من الطلاب العرب والمستشرقين الفرنسيين الشبان وكان يعتبره المستشرق الكبير جاك بيرك أحد ألمع شعراء العرب وأكثرهم عقلانية واستنارة.

ولقد أتيح لي أن أقترب من هذا الشاعر الكبير في غربته الباريسية، ووقفت علي صفحات من نضاله الإنساني من أجل أن يعيش حرا، كريما، مخلصا للفكر والأدب والشعر.

ويعلم القاصي والداني أنه عندما عاد من باريس لم يكن معه من حطام الدنيا إلا أثاث متواضع ومنقولات أشد تواضعا، ومكتبة ضخمة اشتراها كتابا.. كتابا. لكنه كان يرفع اسم مصر بفخر واعتزاز في كل المحافل الأوروبية والعربية التي كانت تدعوه، ويجلس الآلاف وكأن علي رءوسهم الطير ليستمعوا إلي أشعاره.

هذه الصفحة الصعبة والمشرقة في آن واحد لا يعرفها الكثيرون عن أحمد عبد المعطي حجازي الذي بدلا من أن يلقي التكريم في بلده يجد نفسه مجبرا علي بيع مقتنياته ليس لأنه اعتدي علي النيل وتجرأ مثل الآخرين علي بناء القصور في عرض البحر!

وليس لأنه تاجر بالثقافة، والمهرجانات السينمائية، والاحتفالية، وإنما لأنه مارس حقه ككاتب ومفكر في أن ينتقد كلامًا قرأه ووجده يحض علي التطرف ويعادي الفكر والإبداع!

وللإنصاف يجب أن أذكر أنني لم أندهش لما حدث لهذا الشاعر الكبير، الذي تخلي عنه الكثيرون في محنته، لأن منحني التنوير يهبط إلي أسفل سافلين منذ زمن. فقبل عدة أسابيع قام نفر من المنغلقين والجامدين برفع دعوي علي الكاتب المغربي الكبير محمد عابد الجابري، لأنه تجرأ ـ من وجهة نظرهم ـ علي الدين!

وتعجبت أن أحدا في مصر لم يهتم بالأمر، وعندما سألت أحد المفكرين المصريين عن رأيه في محنة الجابري أجاب بلغو لا يصح أن يصدر عن مفكر.. أقول إن محنة الجابري كانت توطئة لمحنة أحمد عبد المعطي حجازي، التي ستتلوها محن كسحابات الليل المظلم.. وكلها تؤكد أن العقل العربي المستنير أصبح خارج نطاق الخدمة بعد أن أصابه داء عضال.

* يبقي أخيرًا أن أذكر أن أحمد عبد المعطي حجازي هذا الرجل الذي بلغ الثمانين من عمره. سيظل اسمه كبيرا وستظل تجربته الإبداعية علامة فارقة في تاريخ الأدب العربي، أما أزمته مع دعاة الانغلاق فهي تصب -في النهاية- في نهر حرية الفكر الذي سيبقي دافقًا متجددًا، لأنه عنوان الأمة المصرية الخالدة.

حوار الحضارات.. مشروطيات النجاح والفشل!

مثلما أن هناك بيوتًا عالمية ذات شهرة ذائعة تتحكم في الأزياء والملابس(شكلاً ولونًا) فتطلق الموضات والصراعات التي يتلقفها الناس في جميع أنحاء العالم بلذة واستسلام. فهناك أيضًا بيوت أو مراكز تتحكم في الأفكار والرؤى والنظريات، فقبل سنوات تبنت منظمة اليونسكو ما كان يعرف بثقافة السلام التي كان يؤمن بها مديرها العام (فيدريكومايور). ولذلك غرقت المنظمة حتى أذنيها في الحديث عن هذه النظرية. وتبعها في حالة الغرق الإعلام الدولي والعربي. فكنا ننام ونصحو علي أحاديث ثقافة السلام ثم انتهي الأمر بانتهاء فترة السيد مايور في موقعه..وبعد هنيهة امتلأت الميديا بحديث متواتر عما يسمي بالعولمة شارك فيه الجميع فأصبح الطعام معولمًا، والحب كذلك والفساد.. ولم لا.. أليست العولمة هي السماء التي تظلل الجميع، وهي

التي تستهدف رفع الحواجز والقيود بين البشر، ومحو هوية الجماعات الثقافية وتفرض التماثل عنوة علي الصغير والكبير.

وظللنا لفترة غير قصيرة تطاردنا العولمة حتى في المخادع. وتتوالي الشروحات ممن يفهم وممن لا يفهم. المهم أننا شعرنا في المنطقة العربية أننا أشبه بالأسري للعولمة وأصحابها.

وكان طبيعيا أن تنتهي موضة العولمة -علي الأقل علي صعيد الميديا ووسائل الإعلام -لتغزونا موضة أخري هي موضة حوار الحضارات. ومن عجب أنها تتعارض أو تتناقض مع العولمة.. وكأنها الأزياء الطويلة (الماكسي) التي جاءت عقب ذيوع وانتشار الأزياء القصيرة (الميني) فالعولمة تلغي الفوارق، وتطمس الملامح، وتزيل السدود بين البشر، بينما حوار الحضارات يتأسس علي الفوارق ويكرس الخصوصيات، ويحتفي بالتمايزات والاختلافات بين الشعوب والحضارات.

* علي أية حال نحن نعيش في هذه المرحلة صرعة حوار الحضارات، فعلي صعيد الندوات نجد أن الجزء الأكبر من برامجها يدور حول هذه الموضة. والمتحدثون في الميديا لا يعدمون وسيلة للإعادة والتكرار في الليل والنهار والعنوان تسرب -كحال العولمة في زمانها- إلي أغلفة الكتب التي ملأت الساحة من حولنا. وخرج المنظرون -كل في مجاله- يتحدثون عن تلاقي الحضارات ليس فقط في السياسة، وإنما

في العلاقات الدولية، وعلـم الاجـتماع. وعلـوم التغذيـة، والفلكلـور، والزينة.. وهكذا بتنا نتنفس حوار الحضارات في كل الأوقات.

في الواقع لا تثريب علي ذلك، فنحن لا نعيش في جزر معزولة وإنما وسط صخب إقليمي ودولي، ولا نملك رفاهية إغلاق الأبـواب وقـتما نريد. لكن المحزن أننا -مثلما نلبس الأزياء التي تبتكرها وتروجهـا دور الأزياء العالمية نفعل الشيء نفسه مع الأفكار والنظريات التي تـرد إلينـا من الخارج وكان الأولي أن نشارك في صنعها حتى لا نكون مـستهلكين فقط! والمشاركة هنا قد تأتي من طرح المفاهيم الـواردة إلينـا ومناقـشتها (وهذا أضعف الإمكان) وليس لمباركتها والأخذ بها وكأنها الحق الـذي لا يأتيه الباطل من بين يديه لا من خلفه. فمثلا نظرية حوار الحـضارات التي اعتمدتها منظمة الأمم المتحدة في عام٢٠٠١، ماذا يعنينا منها، هـل كانت ولا تزال موضـة فكريـة نـستمتع بهـا في أفواهنـا (مثـل العلكـة) لبعض الوقت ثم نمجها بعد ذلك.. أم أن التعاطي معها يجب أن يكون مختلفا، فالأزياء شيء، والأفكار والنظريات شيء آخر.

وهل ستكون لدينا الشجاعة في أن نوجه النقد لاذعا إذا لزم الأمر، لحوار الحضارات، أم سنخشى الهجوم الذي تخصص فيه نفر من بيننا؟! وقائمة الاتهام معروفة سلفا وفيها الاتهام بالرجعيـة والتخلـف، وعـدم القدرة علي(معاصرة) الأفكار. أقول ذلك وفي ذهني الندوة التي نظمتها المكتبة الوطنية في الجزائر وحشدت لها نخبة من العقول العربيـة ضـمن برنامج يمتد طوال شهر رمضان. وأشهد أننا -وبـدون سـابق موعـد-

اكتشفنا أننا نعاني من ذات المرض وأقصد بـه شـعورنا بالـضعف وقلـة الحيلة أمام هذه الأفكار التي تغزو عقولنا وكأنهـا الجـراد. فالحـضارات وإن لم يستطع أحد أن ينكر وجودها تاريخيا، إلا أن أحدا لم يؤكد وجود هذا الحوار المزعوم لأسباب عديدة منها أن مـشروطية الحـوار الايجـابي هي أن يكون بين ندين متساويين في المعرفة والذكاء.. ولـيس هـو حـال الصيغ المطروحة في ظل هذه النظرية التي بات يتحـدث عنهـا القـاصي والداني وكأنها الحقيقة المطلقة. فواقع الحال يؤكد أن الغـرب لا يعـترف بنا نحن ــ في الشرق والمنطقة العربية والإسـلامية نـدا لـه، فهـو الـسيد ونحن العبيد.

ما أريد قوله هو أن هذا الشعور بالتعالي مـن جانـب أهـل الـشمال يضرب مبدأ الحوار، ويلغيه تماما، ليحل محله (مونولوج) أي حـوار مـع النفس.. وهذا هو واقـع الحـال: فـالغرب يتحـدث مـع نفـسه حـديث الزهو، والفخار والسمو، ونحن في أوطاننا نقع فريسة أكثـر مـن تيـار، فنحن بيننا من يري أننا لسنا في حاجة إلي الغرب ويلومه، فالإمام محمـد عبده (مثلاً) قد كفانا بفكره -علي حد قول أحد أساتذة الفلـسفة- عـن جميع الأفكار الغربية!!

ومن بيننا من يري أن ننسي مسألة الحوار ونسير معـصوبي العينـين وراء الغرب، نأكل كما يأكل ونشرب كما يشرب، ونعيش الحياة بمنطقـه ورؤيته. وهكذا وجدنا أنفسنا (مرة أخري) نقف بين ثنائية لطالما عانـت منها أجواؤنا الثقافية وهي إما الانكفـاء عـلي الـذات أو الانفتـاح عـلي

الآخر. دون أدني محاولة للتقريب (العصري) بين الأمرين. علي أية حال، في ندوة المكتبة الوطنية مالت الكفة لترجح غياب الحوار لعدم توافر شرط (الندية) لإصرار الآخر علي إلغاء الأنا. فالثابت عملاً أن هناك عداوة تسكن قلوب رجال السياسة ونفر من رجال الفكر ضد الإسلام وأهله.

ورغم اللغة الخشبية التي تتقنها النخب السياسية إلا أن عبارات بعينها تفضح ذلك مثل حديث الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش عن الحرب الصليبية ضد المسلمين. وتحمس آخرين لتدمير الكعبة المشرفة، وقتل المسلمين أني يوجدون. الخطير في الأمر أن هناك إصرارا غريبا علي نفي الآخر وهذا معناه إلغاء الطرف الثاني الذي يجب أن يجري معه الحوار. وفي هذه الحالة يكون الحديث عن إقامة حوار عبثا لا معني له.. والشيء الثاني الذي يضر بمسألة الحوار مع الآخر هو غياب الشعور بأن الحقيقة لا يمتلكها طرف،(إنما نحن شركاء فيها. فالقاعدة المنطقية تقول: إن امتلاكي للحقيقة التي أدركها وأعيها لا يلغي حق الآخر في أن يمتلك ما يدركه ويعيه).

بمعني أن أحدا ليس من حقه الادعاء بامتلاك الحقيقة الكاملة. بقيت نقطتان، الأولي أن طرفي معادلة الحوار وهما الغرب (والعرب والمسلمون) لا يعرف كلاهما الآخر بشكل صحيح، فالإسلام مثلا يخضع لرؤيتين: رؤية أكاديمية قريبة للصواب، لكنها مسجونة داخل أسوار الجامعات ومراكز البحث العلمي، ورؤية إعلامية تشوه

الإسلام، وتملأ الساحات عبر وسائل الميديا. النقطة الثانية هي أن الحوار مع الآخر يجب أن يسبقه حوار مع الأنا.. وهذا الأخير أشبه بالعنقاء التي نسمع عنها ولا نراها.. بكلمة أخيرة: إن حوار الحضارات قد ولد ميتا بسبب منطق الصدام الذي تسعي إلي فرضه القوي الكبرى، وبسبب إصرارها علي نفي الآخر، والتعامل معه (بدونية) ثم بسبب غياب الحوار مع الذات. وهكذا خلصنا في المكتبة الوطنية الجزائرية إلي لطم الخدود، وتمزيق الملابس، والاعتراف بتخلفنا. وضرورة أن نسمع بعضنا بعضا قبل أن نفرض علي الآخر أن يسمعنا، لأن واقع الحال يؤكد أن ما يحدث اليوم هو حوار طرشان لا حضارات!.

فصل ثالث

فاروق حسني .. وفضيحة الترشح لليونسكو

١٠٩

.. فجأة وجدت حركة غير عادية في مكتب الأهرام في باريس.. سعادة غامرة على الوجوه.. واتصالات لإيطاليا وأخرى للقاهرة.. ومدير المكتب في حالة نشوة.. وعندما سألت عن السبب قالت لي السكرتيرة: لقد اختاروا المدعو فاروق حسني وزيرا للثقافة. أقول الحق لم أكن أعرف هذا الـ"فاروق حسني" ولم يسبق لي أن صادفت اسمه "وعندما استفسرت عمن يكون قالوا لي: لقد كان في باريس مسئولاً عن المركز الثقافي المصري في سان ميشيل عندما كان عاطف صدقي مستشارًا ثقافيًا.. ثم ذهب بعد ذلك إلى روما كمدير لأكاديميتها.. وهو في الأصل فنان تشكيلي (متواضع) من الإسكندرية، وغير متزوج حتى الآن، وعمل معظم وقته في الخارج وتربطه علاقات طيبة بأناس متواضعين فى عملهم من المغرب العربي أو من فرنسا.. لكن لم يؤثر عنه أن تقلد عملاً مهمًا.. فقط كانت تربطه علاقات وطيدة بعناصر تعمل في المخابرات المصرية- على عادة هذا الزمان، وقيل بعد ذلك أنه كان يكتب تقارير مخابراتية عن بعض الطلبة..

المهم لقد أصبح هذا الفنان المغمور وزيرًا للثقافة، واذكر أنه قد قامت الدنيا ولم تقعد عندما تم اختياره ليكون ضمن التشكيل الوزاري الجديد.. واعترض كبار المثقفين المصريون أمثال الكاتب الكبير زكي نجيب محمود، والكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوي.. وعندما ثار جدل حول هذا الاختيار إذ كيف يدير شخص غير معروف القوى الناعمة المصرية؟ وكيف يكون هذا الفنان الذي تربطه علاقات وطيدة بأناس عاديين أو شعبيين من المغرب العربي مسئولا عن الثقافة في مصر التى تفخر بأنها أنجبت ثالوث الفكر: عباس العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم.. أيا كان الأمر لقد قطع لويس عوض – حسبما قال لي – هذا الجدل وترك أصدقاءه من المثقفين.. وزرر الجاكتة ودخل على الوزير الجديد يهنئه، ويبارك خطوة اختياره.

وكتب عبد الرحمن الشرقاوي – يرحمه الله – رافضًا أن يعتلي كرسي الوزارة هذا الفنان الذي لا يعرفه أحد حتى أهل الفن في القاهرة! وقيل وقتها أن هذا الاختيار جاء بتوصية من زوجة الرئيس السابق مبارك لأنه عندما كانت تذهب إلى روما وقت أن كان زوجها نائبا لرئيس الجمهورية، كان لا يهتم بها أحد سوى مدير أكاديمية روما (فاروق حسني).. الذى كان يسير معها ويختار لها بعض الفساتين، ويتحرك معها في بعض الأزقة والشوارع الإيطالية.. وقد حفظت زوجة الرئيس السابق هذا الأمر.. وعندما طرح عاطف صدقي اسمه.. أوصت به خيرًا.. وليتها ما فعلت فلقد جنت هذه السيدة على مصر وثقافتها جناية لا تُغتفر!

وتحت جناح حسني مبارك استمر فاروق حسنى –هذا– ٢٣ سنة فجاء بالثقافة المصرية إلى الأرض.. دون أن يتحرك رئيس الدولة الذي لم يكن يعرف من الثقافة إلا بعض الأسماء..

وكان يعترض عدد من المثقفين المصريين على إدارته للثقافة وتقاعس دور مصر، وترحيب بعض الأصوات إما بتوليهم بعض إصدارات وزارة الثقافة أو إعطاء نفر منهم منحا تفرغية.. "لإبعادهم" المهم أنه فرّغ الوزارة من المبدعين وظل يدير مجموعة من الموظفين ويحيط نفسه بعدد من الشباب الصغار.. وكان إذا وقع في محظور ووجد نفسه في مواجهة مع مثقفي عصره كان يهرع إلى زوجة الرئيس.. لتشمله رعايتها وتجعل كبار رجال السياسية أمثال مفيد شهاب وزير التعليم العالى وكبار رجال الدين. أمثال أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر الأسبق يذهبون إليه ويطلبون منه الصفح والمغفرة.. !

حدث ذلك في أزمة الحجاب عندما طلب من فتاة صحفية أن تخلعه واصفا إياه بأنه رمز من رموز التخلف.. ولقد هاج مفيد شهاب وماج أحمد عمر هاشم وتجاوب معهما الشعب، فلجأ فاروق حسني إلى (الهانم) "فعادت المياه إلى مجاريها.. بالأمر! ..

وبدون مقدمات وجدت حركة غير عادية في مكتب الأهرام في باريس وعلمت أن فاروق حسني سوف يزور المكتب.. لأنه هنا منذ عدة أيام في زيارة خاصة!

وجاء مع الوزير مدير مكتبه وعدد من رجال الوزارة وكانوا كلهم من الشباب الواعد؛ وهو أمر أسعدنا على بُعد.. لأنه لأول مرة يجد الشباب فرصتهم.. وكانوا يشكون من الشكوى من أن الكبار أو العجائز كانوا يظلون في مقاعدهم طويلاً، فيقطعون الطريق أمام الشباب.. على أية حال لولا توجه وزارة الثقافة لظل شباب مصر في النسيان!

وبين الحاضرين كان رجلاً مغربيًا يدعى "رمضان"، يلبس جلبابًا وشبشبًا متواضعًا ولفت نظري أن مدير المكتب كان يخصه باحترام شديد ويلقبه بالأستاذ رمضان! ويطلب منا أن نحقق له رغباته دون استفسار.. كما لفت نظري أنه كان يتكلم عن الوزير الفنان باسمه مجردا من أية صفة!

ثم علمت أن الأستاذ رمضان هو من الأصدقاء المقربين للفنان فاروق حسني يعرفه منذ كان يشغل منصب المسئول الثقافى بالمركز الثقافي المصري. وقال أحد العارفين ببواطن الأمور أن فاروق حسني كان يسكن معه، أو يسكن حجرة فوق السطوح بالقرب منه وقال أيضا أن فاروق حسنيَ كان يعرفه ويعرف أهله ويحب أن يطمئن عليهم بين وقت وآخر!

وأقول الحق لقد أكبرت ذلك في الفنان – الوزير الذي لم ينس بعد الوزارة وبعد أن أصبح من علية القوم أصدقاءه المغاربة الذين كانوا يعملون في عمل متواضع عبارة عن بائع فى متجر مغربي!

فجأة وجدت لوحات على جدران المكتب.. وعلمت أنها من أعمال الفنان فاروق حسني اشتراها منه مدير المكتب الذي كان يريد أن يخطب وده في ذلك الوقت.. ولكي لا يقال أنه أخذ لوحات فاروق حسني فقط وضع مدير المكتب لوحة للفنان الراحل حامد عبد الله من قبيل ذر الرماد في العيون ومن عجائب القدر أن إحدى لوحات فاروق حسنى لم يجدوا مكانا لها في مصر بعد العودة الميمونة لمدير المكتب (وبيع المكتب) سوى المطعم في الدور الثاني عشر!

وبين عشية وضحاها وجدنا الوزير الفنان لا يكاد تمر موقعة يتسبب فيها إلا ونجد أخرى.. لكنه في كل مرة كان يخرج منها كما تخرج الشعرة من العجين!

فقد تسبب هذا الفنان في وفاة أكثر من خمسين من مُبدعي ونقاد المسرح فيما عُرف بمحرقة بني سويف.. وقامت الدنيا في الثقافة ولم تقعد.. وهرع فاروق حسني لزوجة الرئيس لأن المقصلة دنت كثيرا من رقبته.. واتصلت (الهانم) بالأشخاص المعنيين وأخرست أصواتا كانت تطالب بالقصاص في البرلمان.. وانتهت المهزلة بأن قام فاروق حسني – دون أن يبالي- بإلباس التهم إلى شخص آخر هو مصطفى علوي.. وبعد سنوات كان لابد أن يخرج مصطفى علوي.. رئيس هيئة قصور الثقافة بريئًا!

ونجا فاروق حسني من التهمة.. واستمر في جبروته محميًا ليس فقط من زوجة الرئيس ولكن من الرئيس شخصيا إلى حد أن وصفته

بعض الجرائد المصرية المعارضة بأنه فاروق حسني مبارك وليس فقط فاروق حسني...!

والحق أن فاروق حسني هبط بالثقافة المصرية إلى أسفل سافلين وقد لجأ إلى شراء المثقفين.. فأفسح لهم المجال في السفر خارج مصر.

وجعل عددا من الصحفيين مستشارين له مقابل عدة آلاف من الجنيهات ورد الجميل.. كنا نجد صورته يوميًا في الصفحة الأخيرة بإحدى الجرائد القومية وكأنه كان مقررا على مصر والمصريين.

وفي كل مرة كان يحدث تعديل وزاري نجد اسمه يتصدر الباقين في السلطة.

وبعد أن أسند للشاعر أحمد عبد المعطي حجازي منصب رئيس تحرير "إبداع".. جعل غالي شكري رئيسا لتحرير مجلة "القاهرة".. ولقد أبلى هذا الرجل وذاك بلاءًا حسنا فى منصبيّهما.. لكن ليس هكذا تورد الإبل.. يا فاروق.. فقد كانت رائحة هذا الفساد تزكم الأنوف..!

وبعد أن أنهى مدير مكتب باريس مدة الستين عاما، عاد إلى القاهرة وعمل عند فاروق حسني وكيلا للوزارة المسئول عن الشئون الخارجية.. وفي غيبة من الزمن قفز ليكون رئيسا لمهرجان القاهرة السينمائي.. فأتى بهما إلى أسفل سافلين لسبب بسيط لأنه لم يقرأ في حياته كتابا.. ولم يكن له اهتمامًا بالسينما أكثر من أي إنسان.. فقط قد عملت إحدى شقيقاته في السينما وكان لزوجها بعض الأدوار المهمة.. كذلك

ابنة شقيقته لها أدوار سينمائية جادة ورصينة، تذكرت هنا أن مدير مكتب الأهـرام كـان يخطـب ود. فـاروق حـسنى في بـاريس انتظـار أن يـرد الجميل.. وها هو قد قام بالرد! ودفع الشعب المصرى الثمن!

.. ولأن مدير المكتب كان لا يرى في الكون سوى نفسه فقد اعتدى بالضرب على الدكتورة سهير عبد القـادر التـى تـنظم سـنويا مهرجـان السينما ولم يكن له من دور سوى أن يضع اسمه في نهايـة العمـل والحـق يُقال لقد اعتاد على ذلك: فعنـدما قمـت فى مكتـب الأهـرام فى بـاريس بعمل حوار مع وزير خارجية مصر وقتئذ – طلبنى في مكتبـه وأملانـى سطرين هزيلين ثم أمرني أن أضع حواري أسفل السطرين.. فقلـت لـه أنه حوار وليس تصريحات ثم انني قمـت بإرسـاله!! فقامـت الـدنيا ولم تقعد! وللحديث مكان آخر!

.. واذكر أني كنت أكتب في أحد الجرائد الأخرى.. وقد فتح رئيس تحرير هذه المطبوعة النيران على فاروق حسني الذي ردم نهر النيل لكـي يبني قصرًا منيفًا في منيل شيحة.. وقد شاركت في هذه الحملة.. واتصل بي رئيس التحرير وطلب أن استمر في كتابتي..! وبعد يوم واحد علمت من أحد العاملين معه أن رئيس التحريـر طلـب المحـررين وفي اجـتماع قصير قال بصيغة الآمر الناهي: لا تكتبوا حرفا واحدا (نقدًا) في فـاروق حسني.. وبعد يومين كتب يشيد بفاروق حـسني.. وكأنـه لم يفعـل أي شئ مع أن (قصره) مازال موجودا.. والنيل ضاق كثيرًا في منطقة منيـل شيحة..

وعلمت أن زوجة الرئيس السابق اتصلت برئيس التحرير إياه ووبخته على ما فعل في حق فاروق حسني.. وكان الرجل أذنًا صاغية لما أُملي عليه بعد ذلك..

وبدا وكأن فاروق حسني إلها صغيرا.. يفعل ما يحلو له ولا يجرؤ أي إنسان على نقده أو الاقتراب منه إلا بالتقريظ!

والحق أن فاروق حسني قد قضى على الثقافة بالمؤتمرات التي كان يقيمها.. فهو يعرف جيدًا أن المثقفين المصريين (غلابة). وإنفاق الأموال عليهم وتسكينهم بالفنادق.. وإطعامهم سيجعلهم كالخاتم في أصبعه.. وهذا ما حدث..!

لكن جاء ترشيحه لمنصب مدير عام اليونسكو ليكشف المستور عندما اعتذر لإسرائيل أولاً عما اعتبره زلة لسان عندما قال بأنه سيحرق أي كتب إسرائيلية تمر من خلال معرض الكتاب! .. وعندما وظّف ميزانية وزارة الثقافة لخدمة أغراضه الشخصية والدعوة لانتخابه مديرا عاما لليونسكو!

وعندما صورّ الأمر وكأنه منافسة تقف وراءها إسرائيل واليهود.. وقام بتوظيف عدد من الإعلاميين لخدمة أهدافه إما بإغرائهم في وظائف بالتليفزيون أو بإعطائهم آلاف الجنيهات.. ودعوة الوفود العربية والأفريقية والإسلامية على عشاء فاخر في سرادقات أقيمت لهذا الغرض..

.. ومما زاد الطين بلة أن رئيس الدولة خاطبه بعد أن أنفق ما أنفق ووظّف ما وظف ورسب في الامتحان: ارم وراء ظهرك! وكان معنى ذلك أنه باق كوزير للثقافة ولم يسأله أحد عن الملايين التي أنفقها!

وكان هذا أكبر مسمار في نعش الرئيس مبارك السابق.. زاد من كراهية الشعب له، وكذلك لفاروق حسني الذي ثبت أنه فاشل في إدارة ديوان وزارة فكيف نرشحه ليكون مسئولاً عن وزارات الثقافة في العالم.

ثم جاءت ثورة الشعب المباركة، ووضعوا هذا "الفاروق" موضع المساءلة القانونية عما اقترفت يداه.. وانتهى عصره، فذهبت كل أشكال المحسوبية والمحاباة ليبدأ عهد جديد قوامه الجد والعمل والنهضة.

***

بمعنى ما من المعانى كان لابد أن نشير إلى انتحار القوة الناعمة المصرية التى ضاعت في زمن فاروق حسني المنشغل دائمًا بالمهرجانات بينما كانت دول الخليج تنتزع رويدًا رويدًا الدور الثقافى الذي طالما لعبته مصر قديما وحديثًا.. فأنشأت دولة الإمارات المتحدة فرعًا لجامعة السوربون.. وأخيرًا لمتحف اللوفر.. وملأت صحراءها بناطحات السحاب وانشغلنا نحن بمدينة الشيخ زايد في صحراء السادس من أكتوبر التى امتلأت بالمساجد من كل لون وحجم وغابت عنها المراكز الثقافية التى نراها مضيعة للوقت..

.. وتهافت المثقفون.. وأصبحت الثقافة في بلد الثقافة ترفا لا معنى له.. وفعل فاروق حسني ما يحلو له.. وأضاع ميزانية الوزارة التى احتلها أكثر من ٢٣ عامًا.. وعندما التقاه المخلوع مبارك يومًا قال له بالفم المليان.. ارم وراء ظهرك.. ولم يهتم بالشعب المسكين لا رئيس الدولة ولا هذا الوزير الميمون.. وضاعت مدخرات الشعب المصري بالملايين في معركة اليونسكو التى لا ناقة له فيها ولا جمل!!

«ميليشيات» وزير الثقافة!

.. ليس من شك في أن فاروق حسني أقدم وزير ثقافة في العالم، والمتعطش إلى حد الموت للجلوس على مقعد مدير عام منظمة اليونسكو هو رجل بارع في الخلط بين الدعاية وبين الأكاذيب والافتراءات اتي يُروّجها عن نفسه والإنجازات التي قام بها في مصر المحروسة ومنها إنشاء ١٧ متحفًا من بينها – هكذا تقول دعايته – أكبر متحف في العالم، مع أن القاصي والداني يعلمان أن هذا المتحف الكبير لا يزال فكرة، ولن ترى النور إلا بعد سنوات وسنوات، لكن ميليشياته الإعلامية تحدثنا عنها –ليل نهار– وكأنها قد تحققت بالفعل، والناس يقفون أمام المتحف حاليا طوابير مرصوصة، وكأنه متحف اللوفر!

.. قبل أيام صدرت جريدة "الأهرام" وعلى صدر صفحتها الأخيرة خبرًا كاذبًا يقول عنوانه أسبانيا وإيطاليا وبريطانيا تؤيد ترشيح

فاروق حسني لمنصب مدير عام اليونسكو!.. أما التفاصيل فكانت شيئًا آخر وهو أن نفرا من الفنانين الأسبان والإيطاليين والبريطانيين الذين شاركوا في واحد من مهرجانات فاروق حسني (حيث أكرم وفادتهم!) يرحبون بترشيح فاروق حسني لليونسكو!

.. والكذب هنا واضح لأن اختزال دولة بحجم إسبانيا في شخص فنان أو فنانين أو ثلاثة هو تجن وإجرام في حق المتلقي (قارئ الجريدة) وهو في الوقت ذاته افتراء على الحقيقة.

الشيء نفسه حدث في جريدة أخرى عندما تحدثت في عنوانها عن أن فرنسا تؤيد ترشيح فاروق حسني لليونسكو.. وتفاصيل الخبر تقول إن أحد صغار المسئولين في الخارجية الفرنسية أبدى استعداد بلاده لبحث الموضوع مُشيرًا إلى أن الأمر يخص كافة الدول الأعضاء في المنظمة ولا يخص بلده (فرنسا) فقط!

"أريد أن أقول إن هناك تضليلاً إعلاميًا يُمارسه فاروق حسني عبر عدد من الصحفيين الذين يشوهون الحقائق كسبًا لوده، وعدد آخر من المثقفين والروائيين الذين لم يتورعوا يوما عن المطالبة بتكريم فاروق حسني (مطالبين ببقائه في منصبه) بعد مذبحة بني سويف التي راح فيها ٥٩ مبدعًا أزهقت أرواحهم بسبب النار والدخان!

.. وحملة التشويه (التي يسميها الوزير الفنان اللجنة المصرية الخاصة بترشيحه) مستمرة، وهي تلوي عنق الحقائق وتواصل نشر أكاذيبها في كل مكان.

.. ولا يتردد فاروق حسني –بطبيعة الحال– في إدارة توجهات هذه اللجنة، فعندما يُصرّح في الأهرام بأنه أجرى اتصالات مع الجانب الألماني، يكون على هذه اللجنة الميمونة أن تقوم بالإعلان عن أن ألمانيا تساند (وتؤيد) ترشيح هذا الفنان المصري (نادر الوجود) إلى منصب مدير عام اليونسكو!! .. نحن إذن أما غرفة عمليات لا هم لها سوى اختلاق الأكاذيب، وترويج الشائعات والاستناد إلى ظلال الأخبار وتكريسها على أنها الحقائق التي لا ياتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها..

لابد أن نعترف بأننا – في زخم الأعاجيب التي تملأ أرض المحروسة (أرض الكنانة) – أمام ظاهرة أو أعجوبة فاروق حسني الذي بسط سلطته على وسائل الميديا لكي تسبح بحمده ليل نهار.. ولا ترى في مواقفه وسياساته وتصريحاته إلا النبوغ والعبقرية، فهو الذي أحال مصر إلى ثقافة وإبداع بعد أن كانت أرضا مقفرة لا تعرف – عبر أحقابها الزمنية المتعاقبة أي إبداع! وكأن الله – سبحانه وتعالى – قد اختار هذا الفنان لكي ينقذ مصر ويخرج بها من العدم إلى الحياة!

وبلغت هيمنته على وسائل الميديا حدًا جعل اعتدائه على نهر النيل وبنائه قصرًا في عرضه وطوله، "مكرمة" تستحق أن تحشد لها الحاشدين ونضرع إلى الله شاكرين أن أنعم على أرض الكنانة بهذا الابن (نادر الوجود) ليبني في عرض النهر الخالد ما بنى. . والكارثة هي أن الوزير الفنان عندما يلتقي بمواطن عادي في ليبيا أو اليمن تسارع ميليشياته

الإعلامية بتصوير الأمر وكأنه تسليم شعبي ورسمي بأحقيته في أن يكون مديرًا عامًا لمنظمة اليونسكو..

وغاب عن بال الفنان (الكبير) فاروق حسني أن الحكومات العربية والعالمية هي التي ستختاره وليس جموع الشعب المصري المضحوك عليه إعلاميًا.. وليته يجتهد في إقناعه الشعوب الأخرى التي ستسأله – والحال هذه – عن إبداعاته الفنية وهل ترك لنا عملاً يشبه الموناليزا مثلاً أم أن شهرة أعماله جاءت فقط من أنه وزير ثقافة لمصر..

هذا سؤال عليه أن يبحث له عن إجابة.. الشيء "الثاني" أن مسألة الاختيار ستكون محكومة باعتبارات أخرى ليس منها الأكاذيب التي تروّجها الميديا المصرية – في جزء منها – عنه وعن خوارقه وعبقريته ونبوغه..

ويجب أن يفطن الفنان الوزير إلى أن العالم العربي لم يعد كما كان يتصوره.. فمسألة الاختيارات للمناصب العليا لا تعرف المجاملات، ولم يعد الأمر قصاراه أن تبعث مصر برسالة تطلب فيها التأييد (لموقف تراه) فيأتيها الرد حلالاً زلالاً. هذا الزمن قد انتهى، فالمثقفون في الدول العربية لن يقبلوا بما قبل به نظراؤهم في مصر المحروسة.. فالأخيرون لهم مطامع تروجها بالقطع منح الوزير، وهباته، وسفرياته، وقرارات التفرغ للإبداع وخلافه.. أما المثقفون العرب فلا مطمح لهم في شيء من هذا.. ثم هناك سبب ثالث هو أن أصواتا عربية بدأت تطالب بأن التمثيل العربي لا يجب أن تستأثر به مصر وحدها في المحافل الإقليمية

والدولية خصوصًا أن المرشح المصري هو (فنان عادي) مثل مئات بل آلاف ينتشرون في الأرض العربية شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا..

.. ما أريد أن أقوله إن الميديا المصرية – تعيش حالة من حالات التواطؤ المقيتة، فهي ترى في فاروق حسني ما ليس فيه والحديث المغلوط عن أن مساندته لا تعني مساندته في شخصه وإنما هي مساندة لمصر، هو حديث شوفيني يضر بمصر أكثر مما يفيدها..

.. فقط نريد قدرًا من أمانة عند نقل الأخبار أو إذاعتها على الناس.. وليس معنى أن يختار الفنان الوزير بعض الصحفيين و(الصحفيات) ليكونوا مستشارين له، أن نبيع له الصفحات، وننشر "الإفك" والزائف والمزوّر على أنه حقائق هبطت من السماء.

وليعلم هؤلاء أنهم أشبه بالمطففين الذين ذكرهم القرآن الكريم ووضعهم في أرزل مكانة!!

بأي «عقل» سيدير فاروق حسني منظمة اليونسكو؟!

جميل أن تتحمس مصر "الرسمية" لترشيح أحد فنانيها وهو فاروق حسني "وزير الثقافة" ليشغل منصب مدير عام منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة "المعروف باسم اليونسكو".. وقد حدث ذلك في وقت مبكر حتى لا يتكرر ما حدث مع ترشيح مصر في الدورة الماضية لأحد أبنائها النابغين وهو الدكتور إسماعيل سراج الدين والذي وجد نفسه في مواجهة مع شخصيات عربية أخرى.. ومعنى ذلك أن فاروق حسني الذي ابتهج كثيرا لهذا الترشيح يريد أن يعلن نفسه مرشحا عن المنطقة العربية حتى لا يزاحمه أحد في موقع رئاسة منظمة اليونسكو.. على أن تتولى أجهزة مصر الخارجية مهمة تثبيط همم المرشحين العرب الآخرين بالترويج لفكرة أن انقسامنا حول الترشيح يعطي فرصة للدول الأخرى بالفوز وهو ما حدث مع اليابان التي

انتهزت الفرصة وتقدمت بمرشحها الآسيوي "مدير عام اليونسكو الحالي "ففازت بالموقع.

والقراءة السريعة لهذا الابتهاج الذي عبر عنه الفنان فاروق حسني هي أن كل حسناته أنه سبق بإعلان نفسه مرشحًا.. وهي "حسنات" لا معنى لها في ميزان الحسنات المعروف.. فالصفات العلمية والأكاديمية والشهرة الدولية والأثر الإنساني هي مقومات ترجيح كفة هذا الشخص أو ذاك.. هذه واحدة! أما الثانية فهي أن الفنان فاروق حسني لا تنبئ إدارته داخل وزارة الثقافة عن شيء عبقري فالعكس قد يكون هو الصحيح بمعنى أن سلبيات هذه الإدارة تكاد تفقأ العيون والمثال الصارخ على ذلك كارثة مسرح بني سويف ثم أزمة الحجاب التي اشتعلت نيرانها وكادت تحرق الأخضر واليابس لولا لطف الله!

ثم إن اختياراته للأشخاص الذين يديرون القطاعات داخل الوزارة هي اختيارات ذاتية أضرت –وهو ما حدث بالفعل– عندما اختار من قبيل المجاملة أحد الصحفيين ليرأس مهرجان القاهرة السينمائي، فكانت النتيجة أن هبط مستوى المهرجان إلى أسفل سافلين!

بالطبع نحن نسعد أن يكون مدير عام اليونيسكو مصريا لكن ما كنا نريده "ونتمناه" أن يكون منطق الترشيح شيئا آخر غير منطق اللي سبق أكل النبق!! "والنبق هو نوع من النباتات التي أكلها الفلاحون والبسطاء على أنها فاكهة لذيذة.

أمـا أخـشى مـا نخـشاه هـو أن يـدير فـاروق حـسني اليونيـسكو بالطريقة ذاتها التي يدير بها وزارة الثقافة.. هنا سـتكون الكارثـة دوليـة بمعنى الكلمة فالحريق الذي شب في بني سويف سوف يشب – والحالة هذه – في إسبانيا أو الـسنغال أو الأردن. والعقـاب سـيكون حتميًـا لا تقبل فيه شفاعة ولا يُـسمع فيـه رأي أو تبريـر والنـار سـتكون حارقـة وليس بردا ولا سلاما كما حدث.. وصرخات العالم ستصم الآذان ولـن تـذهب أدراج الريـاح كـما حـدث مـع أصـوات الثكـالى والأيتـام والمجروحين في بني سويف.

وهل يسمح لنا فاروق حسني بصفته مرشحا لرئاسة اليونـسكو أن نحذره من التعامل مع القضايا الدينية والعقائدية مـع ممـثلي دول العـالم الأعضاء في اليونسكو بالطريقة ذاتها التي تعامل بها مـع "الحجـاب" في مصر.

في هذه الحالة سيكون الـضرر بالغـا لـيس للفنـان فـاروق حـسني ولكن لسمعة مصر الدولية!

فمثلاً لو استخف السيد فاروق بالقلنسوة التي يغطـي بهـا الـسيخ "الهنود" رؤوسهم أو القلنسوة البيضاء الـصغيرة التـي يعتمرهـا ممثلـو اليهود في المناسبات والاحتفالات.. أو ربما داعب أحد الأفارقة في أمور طقسية تتحكم فيها العادات والتقاليد والموروثـات.. أقـول لـو حـدث هذا – لا قدر الله – فالطامة ستكون كبرى وعظمى في آن واحد.

ثم هناك تساؤل ماذا عساه يفعل فاروق حسني منذ الآن وحتى خوض هذه المعركة التي ستكون –بالقطع– حامية الوطيس؟.. أقول: كان الله في عون وزارة الثقافة التي ستجد نفسها في "حالة ترانزيت".. فالوزير مشغول –كان الله في عونه– والقطاعات التابعة للوزارة ستكون على الأرجح أشبه بالعزب التي يديرها العمد.. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وللإنصاف، إن مصر الرسمية لا تبخل على أبنائها بالموافقة على ترشيحهم ودعمهم، حدث ذلك مع د. بطرس غالي للأمم المتحدة ود. إسماعيل سراج الدين لليونيسكو وها هو يحدث اليوم مع فاروق حسني.

يبقى أن أهمس في أذن هذا الفنان محذرا من أن يستمر في تصريحاته المستفزة التي يدلي بها بين وقت وآخر – كما حدث مؤخرا في أحد البرامج– وأقول: لم تكن موفقا أيها الفنان إذ ظهرت في صورة من يحتقر العمل الثقافي ويترفع عن الاستماع لرأى "مصر الشعبية"، ويتمسك برأيه في ازرداء الحجاب. وكلامك حول أنك لم تعتذر ولن تعتذر واعتبار أنك فوق الشبهات وفوق القانون كلام يضرك كمرشح لليونيسكو أو كمرشح لإدارة تاج محل في الهند أو متحف الشمع في باريس!

فاروق حسني.. في بورصة الترشيحات لليونسكو!

.. اتصل بي – مشكورًا – الفنان فاروق حسني (وزير الثقافة) معلقا على ما كتبته حول مسألة ترشيحه لمنصب مدير عام منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة المعروفة باسم اليونسكو.

وإذ أقدر للفنان الوزير حرصه على توضيح ما رآه قد غاب عني في متابعة مسيرة وزارة الثقافة (منذ توليه مسئوليتها قبل نحو ٢٢ عامًا ونيف..) التي راح ضحيتها مجموعة من أخلص أصدقائه (كما يقول).. ثم إصراره على ثبات موقفه من قضية الحجاب واحترامه في ذات الوقت لكل المحجبات.. وقوله إنه لم يفكر في ترشيح نفسه إلا بعد أن تحدث معه نفر من العاملين من اليونسكو (حدث ذلك – كما يقول – أثناء زيارته الأخيرة للعاصمة الفرنسية).

أقول –ثانية – أنني لست خصمًا للسيد فاروق حسني ولن أكون، فلقد أتيح لي أن أعرفه منذ كان مديرًا للمركز الثقافي المصري في باريس

في أوائل ثمانينيات القرن الماضي وأثمن غاليًا انفتاحه الثقافي وحسّه الحضاري.. كما يسعدني ويثلج صدري أن يكون أحد أبناء مصر متربعًا على عرش منظمة اليونسكو.. لكنه عندما يكون الأمر متعلقا بمنصب دولي رفيع يحمي فيه وطيس الحرب والتنافس.. فلا مجال للعواطف أو المشاعر أو الأمنيات.. لأن معايير الاختيار ستكون صارمة وخشيت – ولا زلت أخشى – ألا تنطبق على الفنان الوزير فاروق حسني.

وقلت ولا زلت أقول إن كل فضله – كما أذيع حتى الآن – أنه أعلن نفسه مرشحًا قبل الآخرين.. فكان حاله أشبه بمن استيقظ مبكرًا ليحجز لنفسه المكان الأول في الطابور!!

وهذا معيار – لعمري – ضعيف وهش، وأكاد أقول لا يليق، فالمعايير الموضوعية والعلمية والأكاديمية والدولية شيء آخر غير الاستيقاظ مبكرا!!

أما النقطة الثانية فهي أن الفنان الوزير أعلن نفسه – حسب أول تصريح له – مرشحًا عن المنطقة العربية.. وهذا أمر غير دقيق، لأن الدول العربية لم تعطه هذا الحق، وإنما هو – سمح لنفسه – أن يغتصبه اغتصابًا!

.. ولأنني أثق في "ليبرالية" الفنان فاروق حسني ، فأرجو أن يسمح لي بمناقشة القضية من زواياها الأخرى.

أولا: إذا كان يرى أن أحقيته (في هذا الاغتصاب) أو هذا الترشيح تعود إلى أنه فنان متميز، وله لوحات في أماكن كثيرة.. تتميز بألوانها

وفضاءاتها، وأفكارها.. فيجب ألا ينسى أن أمثاله كثر في المنطقة العربية ومنطقة المغرب العربي تزخر برسامين وتشكيليين يتمتعون بسمعة دولية بل إن حركة الفن التشكيلي في المغرب والمشرق (العربيين) تحتل مساحة لا بأس بها في العقل الفني الغربي.

أريد أن أقول إن كون فاروق حسني فنانًا متميزًا، لا يكسبه ذلك أفضليات على آخرين.

ثانيا: إذا كان يرى أن أحقيته في الترشيح تأتي من أنه وزير ثقافة.. فهذا أمر أهون من أن يكونه داعمًا له، لأن شهرته كوزير للثقافة تتضاءل كثيرًا بجانب شهرة "أندريه مارلو" وزير ثقافة شارل ديجول (قديمًا) و "جاك لانج" وزير ثقافة فرانسوا ميتران (حديثا).

وتبدو – في ذات الوقت – شهرة مُتواضعة بجانب شهرة محمد بن عيسى أشهر وزير ثقافة في المغرب (حاليًا يشغل منصب وزير الخارجية) وشهرة نجاح العطار وزيرة الثقافة السورية المعروفة.

ماذا أريد قوله من ذلك؟

أريد أن أقول – بوضوح – إن المعايير التي ارتاحت نفس فاروق حسني إليها – لا معنى لها في بورصة المعايير الدولية.. إن الدكتور إسماعيل سراج الدين لم تشفع له سمعته الدولية (قديمًا وحديثًا) بالفوز بهذا المنصب حيث لم يحصل إلا على ثلاثة أصوات من إجمالي ٥٨ صوتًا وهو عدد أعضاء المجلس التنفيذي.. ولا معنى للقول إن فاروق حسني

يمثل مصر صاحبة الثقل والوزن والحضارة في هذا الترشيح! لأن إسماعيل سراج الدين كان يمثل مصر أيضًا.. إلا إذا رأى البعض أنه في هذا الترشيح كان يمثل الجابون (في أفريقيا) أو الأكوادور (في أمريكا اللاتينية!!).

وثانيًا أريد أن أقول أنه لا مجال للرومانسيات والمجاملات في هكذا ترشيح .. وكلنا يذكر صفر المونديال الذي حصلنا عليه (بجدارة!) رغم وجود لجان كثيرة لدعم ومساندة مصر (فجاءت النتيجة صادمة ١٤ صوتا لجنوب أفريقيا و١٠ أصوات للمغرب أما مصر فلم ينتخبها أحد من ٢٤ دولة بينها دول عربية وأفريقيا وآسيوية!).

.. أذكر ذلك بمناسبة تطوع بعض الكتاب بالإعلان عن تأسيس لجان لترشيح فاروق حسني لمنصب مدير عام اليونسكو.

وثالثا: إن فاروق حسني – ونقلها بصراحة – ليس (ألمعيًا) في إدارته لوزارة الثقافة، فالشللية هي التي تتحكم في قطاعات الوزارة.. وتمثل فضائح محمد فودة – مستشار الوزير – وأيمن عبد المنعم رئيس صندوق التنمية الثقافية وإدارة الشوباشي الفاشلة لمهرجان القاهرة السينمائي حقائق تفقأ العيون.

والمنطق البسيط والسهل يقول: إذا كانت إدارة فاروق حسني لوزارة الثقافة على هذا المستوى الصادم.. فبالقطع ستحدث كوارث في إدارته لمنظمة اليونسكو.. وهنا ستكون سمعة مصر الدولية هي المتضرر الأول!!

رابعًا: لابد أن أروي واقعة ذات دلالة: بُعيد عودة مصر إلى الصف العربي رأت فرنسا والدول العربية أن يكون مدير معهد العالم العربي في باريس مصريا، إذ لا يُعقل أن تكون بلد (طه حسين) غائبة عن هذا الموقع.. وبالفعل بعد انتهاء مدة اللبناني باسم الجسر، طلبت رئاسة معهد العالم العربي من مصر أن تقوم بترشيح أحد أبنائها.. والمفاجأة أن مصر تقدمت بترشيح أحد السفراء ويدعى عبد الحميد بدوي. وأشهد أن رئاسة المعهد قد أسقط في يديها لأنها تعرف أن مصر غنية بمفكريها ورجالات العلم من كل لون وصنف، ولم يفهم لماذا رشحت مصر سفيرًا في موقع لا علاقة له بالدبلوماسية.

.. ثم وقع القرار كالصاعقة على رأس مصر وكان مضمونه رفض هذا الترشيح وتم اختيار أستاذ مغربي للأدب العربي في جامعة محمد الخامس يدعى (محمد بنونة..) وضاع هذا المنصب على مصر.

اختم قائلاً: لست ضد فاروق حسني أو غيره من الفنانين لكني عندما يتعلق الأمر بمنصب دولي فلا مجال للعبث أو المجاملات.. وحتى لا يتكرر ما حدث – بشكل أو بآخر – في معهد العالم العربي، وترسب مصر في الامتحان فتترك في الحلق غصصًا، يتعين أن نزن الأمور على نحو مُغاير.

«تدجين» المثقفين على طريقة فاروق حسني!

كان اليونانيون الأقدمون يقولون أن الطريق على اكتساب الجنسية اليونانية يبدأ بمعرفة ثقافتها.. وفي أوروبا اليوم لا يمنح مغترب جنسية إحدى دولها إلا بعد المرور بامتحان عسير في اللغة الفرنسية إذا كان المغترب يريد الجنسية الفرنسية أو اللغة الإنجليزية إذا كان يريد الجنسية البريطانية أو الأمريكية، بل أن دولة مثل فرنسا فكرت في إنشاء منظمة الفرانكفونية لدعم ثقافتها وترويج لغة فولتير.. على أن يكون العنصر الثقافي "الفرانكفوني" داعما لعناصر سياسية أخرى تكرس قوة ونفوذ فرنسا.

أريد أن أقول أن الثقافة في الدول المتقدمة تعتبر ركيزة أساسية من ركائز الدولة الحديثة.. وبذلك كان أندريه مارلو الكاتب الفرنسي المرموق من أنجح وزراء الثقافة في العالم لأنه انطلق من ثقافته

الموسوعية وأحاط بكثير من القضايا الثقافية والحضارية، ودس أنف بلاده فيها، فبدت أمام العالم وكأنها دولة القرار الثقافي وليس فقط السياسي.

الشيء نفسه فعله فرنسوا ميتران الرئيس الفرنسي الأسبق عندما اختار جاك لانج وزيرًا للثقافة.. فبعث بذلك رسالة إلى أنصار الاشتراكية في فرنسا والعالم، مضمونها أن الثقافة التي لا تهبط على الناس العاديين، وتذوب بينهم، وتنير الطريق أمامهم، وترفع مستواهم الحسي والذوقي لا تستحق أن تكون ثقافة.. قد تصلح أن تكون حشوا، أو لغوا، أو أي شيء آخر!

وعقيدتي الآن شخص ثالث هو محمد بن عيسى أشهر وزراء المغرب قاطبة، وسبب شهرته هو الثقافة التي تولى أمرها في بلاده سنينا عددا، وبرع في أن تتجاوز شهرته بأعماله وأفكاره ورؤاه حدود المغرب حتى استحق أن يحصل على لقب وزير وزراء الثقافة العرب أجمعين.. وقد اختاره الملك محمد السادس ليشغل وزير الخارجية، فحقق فيها نجاحا مماثلا.. وأكد أن الثقافة يمكن أن تصلح ما تفسده السياسة.

الشخصية الرابعة هي شخصية السيدة نجاح العطار وزيرة الثقافة السورية السابقة.. وكلنا يذكر أنها تصدت لمعارك ثقافية وحضارية كثيرة وكانت تتكلم فيها باسم الثقافة العربية.

الأهم من ذلك أن هؤلاء الوزراء نجحوا في خلق أجواء ثقافية غير مسبوقة قوامها التنوع، والصحف، وحرية الإبداع والتف حولهم جموع

المثقفين، فلم نسمع أن أحدا "هـاجم" محمـد بـن عيـسى في المغـرب أو جاك لانج في فرنسا.

وعلى غير تنسيق تخلق في البلدين رعيل من عشاق الثقافة العالميـة، وتناوبت الأجيال المتعاقبة هذا العشق، وتحقـق الكثـير في مجـال الثقافـة الجادة والعميقة وليس في مجال المهرجانات والاحتفـالات التـي يـصدر عنها وهج لحظي ثم ينتهي كل شيء وينمحي من ذاكرة الأجيال.

أقول ذلك وفي ذهني ما يتردد وهو في أغلبه صحيح حـول أنـصار دور مصر الثقافي الذي بلا شك يرجـع في جانـب كبـير منـه إلى آليـات عمل وزارة الثقافة في مصرنا التي خاصمت كل الأعمال الجادة واكتفت بالاحتفاليـات ظنـا منهـا أن المثقفـين تكفـيهم، بـل وتـرضي بطـونهم البوفيهات المفتوحة ولذلك أكثرت منهـا. وأثلـج صـدرها أن التقـريظ والثناء انهال على الوزارة والـوزير.. والـدليل أن أخبـار الـوزير تنتـشر كالخلايا السرطانية في كل الصحف.

المؤلم أن الحصاد النهائي لعقدين ونيف من الزمان كان ولايزال لـه طعم الحنظل في الفم فالريادة الثقافية المصرية قد تم الإجهاز عليهـا مـع سبق الإصرار والترصد والحس العروبي الـذي كانـت تجـسده مـصر في ثقافتها العربية والإسلامية ضاق وغاب ولم يعد منه إلا أطلال وحطام.

وانغلقت مصر على ذاتها، وبعـد أن كانـت تكتـشف المواهـب، في الأدب والـشعر والثقافـة والفلـسفة، وتنتـشر في كبريـات دور النـشر مؤلفات المفكر المغربي محمد عزيز الحبابي، والفيلسوف الجـزائري مالـك

بن نبي والرائد اللبناني ميخائيل نعيمة، والشاعر الرومانسى جبران خليل جبران تنكرت لذلك، وتخلت عن هذا الرعيل وتلاميذه وأصبحت مصر تدور حول نفسها.

الأخطر من كل ذلك أن المثقفين المصريين نجحت وزارة ثقافتهم في تدجينهم، فأصبحوا لا يرون إلا ما يرى الوزير، ولا يجدون ألا حيث يوجد الوزير.

وبدا خطابهم الثقافي مملاً ومكررًا وعدميًا لأنه من الألف حتى الياء خطاب للإشادة وكان طبيعيًا بعد عقدين من الزمان أن نجد أنفسنا أمام مثقفين "كالخصيان" تنكروا لرسالتهم الثورية والتنويرية، وأصبحوا بردا وسلاما على الوزير والوزارة.

ولست أشك لحظة واحدة في أن النفر من هؤلاء المثقفين الذين وقعوا ذات يوم وثيقة نشرتها الصحف في أعقاب جريمة محرقة مسرح بني سويف يطالبون ببقاء الوزير في موقعه.. أقول أن هؤلاء يمثلون اليوم وغدا وبعد غد رمز الاستكانة والخنوع.. بل رمز الخيانة. لأنهم خانوا الثقافة، وضربوا بدور المثقف عرض الحائط.

كما سيذكر تاريخ الفكر المصري بكثير من العار موقف هؤلاء المثقفين من أزمة الشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازي الذي باع مقتنياته ومستلزمات بيته المتواضعة بسبب إيمانه بحرية الفكر.. والعجيب والغريب أن أخواننا المثقفين دخلوا الجحور كالجرذان إلا من صوت خافت هنا، وآخر هناك، وهو ما يجعلنا نندم أن أحمد عبد المعطي

حجازي لم يولد ولم يعش في زمن الكبار أمثال العقاد وطه حسين وأحمد لطفي السيد، فالأول دافع عن الثاني في البرلمان رغم اختلافه سياسيا معه، والثاني هدد بالاستقالة من مقعد رئيس الجامعة إذا مس أحد طه حسين بسوء.

أما مثقفو هذا الزمان ويسبب تدجين وزاري متواصل ومستمر أصبحوا أشباه في الثقافة والوطنية والوعي.. وهم في كل الأحوال آثمون لأنهم شاهدوا حرية الفكر تُذبح على أيدي غلاة الانغلاق و الظلامية ولم يتزحزح أحدهم قيد أنملة من أمام البوفيهات المفتوحة في وزاراتهم.. وزارة الثقافة سابقا!

.. ما هكذا تورد الإبل يا سيد «سلماوي»!

تحت عنوان : كيف نصل إلى اليونسكو؟ كتب محمد سلماوي مقالا مطولا في الأهرام يحث فيه مصر الرسمية على ضرورة بذل الغالي والنفيس لكي يفوز صديقه الفنان فاروق حسني (وزير الثقافة) بمنصب مدير عام منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة المعروفة باسم اليونسكو.. ولأنني أعرف – مثل كثير غيري – الحس الإنساني الرفيع (جدًا) الذي يسكن محمدٍ سلماوي بوصفه أديبًا (رائعًا). وكاتبًا مسرحيًا (مرموقًا)، أدهشني أن أقرأ دعوته التي يطالب فيها مصر بأن تحذو حذو اليابان ولا تتردد في رصد ملايين الدولارات في هكذا مهمة لكي يفوز الفنان فاروق حسني بهذا المنصب الذي يتمناه ويريده.. وسبب دهشتي هو أن محمد سلماوي يسكنه هو الآخر فنان رقيق الحاشية يتألم لألم الجماعة، ويتعاطف مع الفقراء أو ما اصطلح على تسميته بمحدودي الدخل وهم كثر يملؤون وادي النيل وسفحه على

السواء.. وكنت أتمنى لو أني قرأت لهذا الكاتب تحريضًا للدولة على أن تنفق عشرات الملايين فقط – ولا أقول مئات الملايين من الدولارات – لإنشاء طلمبات وماكينات ضخ للمياه التي انقطعت عن ملايين البشر في الدقهلية والقليوبية ودمياط، والشرقية والغربية، وفي القاهرة الكبرى (حي المعادي...الخ) وحولتهم إلى (حاملي جراكن) يبحثون عن المياه في المناطق المحيطة بهم.

وأرجو أن يسمح لي السيد سلماوي – وهو رئيس اتحاد كتاب مصر سابقا – أن أسأله:

أيهما أولى وأجدى وأكثر إلحاحًا أن ننفق ملايين الدولارات لتوفير مياه الشرب للشعب المصري المسكين، أم ننفق أضعافًا مضاعفة من هذه الملايين لكي يصل صديقه فاروق حسني إلى منصب مدير عام منظمة اليونسكو..؟!

.. وهنا أرجو من السيد سلماوي أن يحتكم إلى حسه الأدبي والإنساني الذي كتب به سالومي، والجنزير، وبقية إنتاجه الفني الجميل..!

.. ثم أدهشني ثانية – في إطار تأملي لما كتبه حول اليونسكو وفاروق حسني – أن يتحدث عن العرب الذين يجب أن يمثلهم فاروق حسني في ترشحه لليونسكو، خصوصا أن وزير الثقافة الغارق حتى أذنيه في (مصر) لم يضبط مرة واحدة متلبسًا وهو يتحدث عن الثقافة العربية.. والعقدان الأخيران اللذان سيطر فيهما هذا الفنان

التشكيلي على سماء الثقافة في مصر، هما خير برهان على تراجع مصر عن دورها الثقافي في المنطقة العربية، (وللأديب الكبير جمال الغيطاني رؤية كاملة في هذا الخصوص!!).. أريد أن أقول إن وزير ثقافة مصر (والمتحمسين له أمثال سلماوي) أجهزوا على الملمح العروبي للثقافة العربية ورفعوا شعار مصر – ولا شيء غير مصر – وعندما وجدوا أنفسهم أمام تحد انتخابي في اليونسكو، تحدثوا فجأة باسم العرب. وهذا تناقض عجيب وغريب سيما إذا علمنا أن السيد فاروق حسني تحدث عن أنه مرشح العرب، وهو أمر غير صحيح فضلا عن أنه غير وارد، وكل ما قام به هو أنه اغتصب هذا الحق وأعلن نفسه مرشحًا عربيًا وحيدًا، استنادًا إلى أنه صحا من النوم مبكرًا ووقف في طابور الترشيحات!

.. الشيء الثالث الذي يدهشني هو أن سلماوي الذي يتحدث دائما ككاتب وكرئيس لاتحاد كتاب مصر لم نسمع له كلمة واحدة قالها في أمور هي من أخص خصوصياته (ككاتب وكرئيس سابقًا).. فمثلاً عندما انفجرت قضية التلميذة آلاء مجاهد التي حكمت عليها وزارة التربية والتعليم بالرسوب لأنها تحدثت في موضوع الإنشاء عن أمور اعتبرها المصحح – المخبر- من الكبائر.. ولجأ والد آلاء بوصفه عضوًا في اتحاد الكتاب منذ سنوات، يطلب العون لمواجهة هذه (الشدة) التي ألمت به.. اختفى اتحاد الكتاب واختفى رئيسه سلماوي الذي غرق في جب الصمت الرهيب!

وكان الأولى والأجدى أن نلمس موقفًا – لا نقول يساند والد آلاء–ولكن يدافع عن حرية التعبير.. لكن لأن (مجاهد) رجل بسيط ومسكين وقليل الحيلة، فلم يهتم به سلماوي الذي يعرف عنه اهتمامه بذوي النفوذ والسلطان.. ويسعده كثيرًا أن تمتد السجادة الحمراء تحت قدميه وأقدام ضيوفه.. الذين ليس منهم بالطبع الأستاذ فرج مجاهد والد آلاء..

.. الشيء الرابع الذي أدهشني أن سلماوي، واتحاده الميمون قد هبط عليه – أو هكذا يبدو – سهم الله، فأسكته دهرًا إزاء محنة الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي الذي صدر ضده حكم قضائي بغرامة قدرها ٢٠ ألف جنيه.. وإلا فالحجز على منقولات البيت المتواضعة هي الخطوة الأولى في سلسلة ابتزاز يخسر فيها الفكر المستنير أمام الفكر الانغلاقي الجامد..

.. وأسال – مع الآلاف من مثقفي مصر – أيناك يا سيد سلماوي، أليس من الأليق لك ولاتحادك أن تعلن عن نفسك في هكذا مناسبة، وأن تحرص الدولة على مساندة المفكرين التنويريين ضد الرعاع والغوغائية؟!

كنا نتمنى يا سيد سلماوي أن نقرأ لك عشرات المقالات التي تدافع عن أحمد عبد المعطي حجازي فتدخل بذلك التاريخ الثقافي من أوسع أبوابه.. لكنك فضلت أن تحث الدولة على انفاق مئات الملايين من

الدولارات لكي تمهد الطريق أمام صديقك فاروق حسني، كي يحقق طموحًا نرى نحن أنه مجرد طموح شخصي لا أكثر ولا أقل..

وهنا أود أن أشير إلى أن فاروق حسني رأي أن يرشح نفسه، وطلب من مصر الرسمية أن تسانده.. وبهذه الصفة لا يستطيع القول بأنه مرشح الدولة.. فقد كان بالإمكان أن نقول ذلك لو أن الدولة فكرت في أن يشغل (مصري) موقع مدير عام اليونسكو وقامت باستعراض أسماء من مواطنيها وكبار كتابها ومثقفيها من أصحاب الأقلام والأفكار.. ثم استقر الرأي أخيرًا على شخص بعينه.. هنا (وهنا فقط) يكون هذا الشخص مرشح الدولة بحق.. وهي حالة لا تنصرف على حالة فاروق حسني الذي يحيط نفسه بالفاسدين من كل لون وصنف، ومثال مستشاره الصحفي محمد فوده ومدير مكتبه وحامل أختامه أيمن عبد المنعم هما خير مثال على ذلك.. ناهيك عن اعتماده على مبدأ الشللية والمحاباة وهو ما جعله يسند المواقع والمناصب في قطاعات الوزارة المختلفة إلى الأدعياء، وغير الأكفاء، وعديمي الخبرة والمعرفة.. والمثال الصارخ على ذلك إسناده منصب رئيس مهرجان القاهرة السينمائي إلى شريف الشوباشي الذي لا ناقة له ولا جمل في مسألة السينما، ولا تزيد معرفته في الأفلام والمهرجانات عن معرفة أي مواطن عادي. لذلك كان الهبوط المدوي من نصيب هذا المهرجان الدولي.. وإذا قسنا هذا الحال على معظم قطاعات وزارة الثقافة وجدنا أن المصيبة أعظم!!

أريد أن أهمس في أذن السيد سلماوي قائلاً: إن ملايين المصريين الذين كانوا – في السابق – من محدودي الدخل فأصبحوا اليوم من معدومي الدخل هم الأحوج إلى ملايين الدولارات التي تطلب إنفاقها (تزلفا وقربى) لصديقك وزير الثقافة.. فثورة الجياع أو العطاشى في حال حدوثها ستكون عارًا على مصر، أما وصول فاروق حسني إلى اليونسكو أو عدم وصوله فهي مسألة هامشية لاوزن لها في تاريخ الشعب المصري العريق.

وأخيرًا يا سيد سلماوي ما هكذا تورد الإبل لأن مصداقيتك ككاتب أصبحت موضع رهان!

هل تنكرت مصر لتراثها الليبرالي: حسن حنفي نموذجا!

لا يزال موقف المثقفين والمفكرين المصريين إزاء محنة المفكر المغربي الكبير محمد عابد الجابري(*) تصيبني بالذهول فهناك حالة عامة من "البلادة" تجاه لا أقول الرجل فحسب. وإنما تجاه الأزمة التي فجرها والخاصة بحرية الفكر.. بحيث يبدن الحال وكأن مصر قد تنكرت لتراثها الليبرالي العريق الذي يعود إلى أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد ورفاقه ممن حملوا مشعل الليبرالية في مصر المحروسة منذ زمن، وأطلقوا على أنفسهم اسم (الحريين) نسبة إلى الحرية.. وما يدفعني -بحزن- إلى قول ذلك هو لقاء عابر جمعني بالمفكر المصري الكبير حسن حنفي

(*) كان المفكر المغربى الكبير محمد عابد الجابرى قد كتب مقالة.. اعتبرها المتشددون طعنا في ثوابت الدين الإسلمي.. فقامت قيامتهم عليه وطالبوا بالقصاص منه!

عندما سألته عن رأيه في الجدل الذي يثور – في الساحة الثقافية والفكرية – حول مقالة كتبها الجابري وأدت إلى أن يتحرش به بعض أدعياء الدين (ولا أقول الدعاة)، وطالبونا بإقامة الحد عليه!!

كانت مفاجأة أن حسن حنفي استقبل سؤالي (بدرجة ما) من عدم الاكتراث وقال (بلهجة إن لم يكن الشامت فبلهجة من يبدو وكأنه حذر (سابقًا) وأنذر): إن الجابري يستحق ما هو فيه الآن، لأن مثل هذه القضايا الدينية الشائكة لا ينبغي أن تطرح في الصحف (السيارة).. وكان حريا به أن يناقشها داخل قاعات البحث فقط.

وما يقوله الدكتور حسن حنفي – في هذا الشأن- وإن بدا هادئًا وعاقلا، فالمحقق أن ظاهره الرحمة وباطنه العذاب !. أو فلنقل يدل على أمرين أحلاهما مر. فإما أن الدكتور حنفي يعاني هو الآخر – القيود التي يفرضها بعض من رأوا في أنفسهم (أوصياء) على الفكر، فآثر السلامة، وانكمش وتقوقع على نفسه (قانعا إياها) بأن قضايا الفكر الخلافية لا مكان لها سوى قاعات الدرس والجامعة.

وهو أمر – حسبما يبدو – فرضه – عليه شعوره باليأس وعدم الجدوى.. وإما أنه ينطلق من نفس مساحة اليأس إلا أنه يتجه إلى الجمهور – ولا أقول العامة الذي لا يشعر تجاهه الدكتور حنفي بأدنى مسئولية تثقيفية او تنويرية، وكفى هذا الجمهور ما هو غارق فيه من تفاهات وفكاهيات ومسليات.. وحسبه أنه سعيد بحاله وواقعه، وغائب عن مستقبله.. وبالتالي فمن الظلم – على الأقل من وجهة نظر

الدكتور حنفي – أن نشد انتباه هذا الجمهور إلى مساحات أخرى تقض مضجعه، وتصيبه بالأرق.

وظني أن هذين الأمرين – إن انطبقا – كتفسير – على موقف الدكتور حنفي، فمعنى ذلك أننا نعيش – بالفعل واقعا ثقافيا وفكريا مأزوما. لا يجدي معه إرجاء أو تغييب، أو تبرير.

فالمفكر المغربي الكبير محمد عابد الجابري لم يخطئ حسبما يرى مفكرنا المصري الكبير حسن حنفي، وإنما عاش فكره وراح – من منطلق شعوره كمفكر مسئول – يناقش قضايا – لابد من مناقشتها، ولم يعد مقبولا – أن نهيل عليها التراب (كالموءودة) التي لا تملك من زمام أمرها شيئا غير أن تترك نفسها لدافنيها!

نعم لست أنكر أن إجابة الدكتور حسن حنفي قد أزعجتني لأنها أولا تتنكر لدور المفكر كما عرفناه ويعرفه مثقفو العالم في المشرق والمغرب، وهو أن يكون (قائد رأي).. ينثر أفكاره كالورود بين عقول البشر ويضيء رؤية الطريق أمام الضالين.

وثانيا لأن الدكتور حسن حنفي – وهو ينصح الجابري بألا يتجاوز حدود قاعات البحث والجامعة، إنما ينسي أن حوراته مع الجابري في أوائل تسعينيات القرن الماضي لما كان ممكنًا أن يكتب له الذيوع والانتشار، أو أن تأتي بأكل وفيرة ما لم تنشرها مجلة "اليوم السابع" التي كانت تصدر من باريس في ذلك الوقت.. ومعلوم أنها أحدثت دوائر اهتزازية واسعة.

وليسمح لي أستاذنا الدكتور حسن حنفي أن أذكره بمقالات توفيق الحكيم التي نشرها لـه "الأهـرام" تحـت عنـوان (حـديث إلى الله) ومـا أحدثته من (دوي) شاركت فيه نخبة من مثقفي هذا الزمان أمثال: زكي نجيب محمود، ويوسف إدريس..!!

يؤلمني -بحق- أن تغيب مصر عن الساحة الفكرية كـما هـو حالهـا اليوم، بل الأخطر من ذلك أنها تحولت من داعمة للفكر الحر، ومشجعة عليه، وحاضنة له، إلى كارهة للعقول المتفتحة، وساخطة عـلى كـل مـن ينشد الفكر الطليق..

أقول بعد أن كان هذا هو حـال مـصر، نجـدها تتـصيد الأخطـاء، وتتربص بالعقول، وتفرض وصاية مقيتة على الدين تضعها – في النهاية – على طرفي نقيض مع تاريخها الليبرالي الذي كنا نظنه أينع وأثمـر لا أن يضمر ويذبل لتحل محله أفكار الإدانة والحجر والتجريم.

قناعتي هي أن الجابري هو أحد العمد الأساسية التي تقوم عليهـا الليبرالية العربية اليوم وغدا، وهو سليل ابـن رشـد (العظـيم)، وكتابـه (نقد العقل العربي) هو حجـر زاويـة في هـذا الاتجـاه سـائرا عـلى درب "تهافت التهافت"!

ولم يخطئ الرجل عندما تعاطى مع الصحف السيارة (على نحو مـا ذهب زميله حسن حنفي) لأن الفكر لا يجب ألا يحد بمكان أو زمان.

أمثال الجابري كثيرون منهم الجزائـري محمـد أركـون، والـسوري الطيب تيزيني، والبحريني محمد جابر الأنصاري، والمصريان أنور عبـد الملك وزكي نجيب محمود وكنا نحشر بين هؤلاء حسن حنفي.. ولكـن قبل أن يقول ما قال!

«الجابري» وأزمة الليبرالية في مصر

في الوقت الذي يدافع فيه رئيس الوزراء الفرنسي السابق (دومينيك دوفيلبان) عن أحد المدرسين الذين هاجموا الإسلام في فرنسا. مؤكدا قيمة التسامح واحترام الرأي الآخر، يقيم بعضنا المشانق للمفكر المغربي الكبير محمد عابد الجابري بسبب مناقشته لقضية تحريف بعض نصوص القرآن، وهي قضية – كما يعرف الكثيرون من المهتمين بالتاريخ الإسلامي – قديمة سال فيها مداد كثير. وأرخ لجانب منها عدد من المفكرين أمثال عبد الرحمن بدوي، وفرج فودة، وصادق العظم.

ما معنى هذا الكلام؟

معناه باختصار، أننا قد ضقنا ذرعا بأي رأى يراه بعضنا مغايرًا لآرائهم وتنكرنا للعقول الباحثة المتأملة. والأذهان المتوقدة التي تبحث

عـن الحقيقـة. وأخـذنا الأسـهل وهـو اتهامهـا بالـضلال والانحـراف وأعطينا لأنفسنا حقوق المنع والمصادرة. فبين عشية وضحاها وبحسب الردود العاصفة التي تريد أن تقصم ظهر محمد عابد الجـابري – أصـبح الرجل زنديقا، وصعلوكا. بل لعله شيعي اندس بـين أهـل الـسنة. وفي هذا الاتهام الأخير (لمز وغمز) وتحريض (غـير أخلاقـي) عـلى إشـعال نيران الفتنة بين أهل السنة والشيعة (أبناء الدين الواحد)!

المؤلم أن هذه الأزمة التي أرى أذرعها تمتد لتلف العـالم الإسـلامي كله. قد فضحت (حالـة الـتربص) التـي يعيـشها الـبعض في مواجهـة البعض الآخر. وبتنا نشعر بأننا نعيش (حربا أهلية) على صـعيد الفكـر. قد تفضي إلى تحريم التفكير أو تحرض – على أقل تقدير – على الإضراب عن التفكير، ناهيك عن أنها تجعلنا نتنكر لـتراث ليـبرالي نـادر. فكيـف نحاكم مفكرا بوزن محمد عابـد الجـابري (مؤلـف كتـاب "نقـد العقـل العربي"). ونتناسى أن الفضاء العربي والإسلامي سمح قبـل أكثـر مـن نصف قرن أو يزيد بـأن يـضع إسـماعيل أدهـم كتابًـا بعنـوان لمـاذا أنـا ملحد؟!

السؤال الذي يطرح نفسه هو التالي:

ماذا جرى لنا كي نخنق حرية الفكر في بلادنـا. ونتـصيد الأخطـاء لبعضنا البعض ونستبدل الحوار بالتجريح ولا يتورع نفر منا عـن إقامـة محاكم تفتيش إسلامية لمجرد أن مفكرا عـالج قـضية يـرى الـبعض أنهـا ضمن "المسكوت عنه" أو لا ينبغي التطرق إليها حتى ولو كانت هـذه

القضية (ومثيلاتها) قد شغلت ولاتزال عقول نخبة من كبار العلماء والفقهاء، والباحثين، وتعتبر – في الوقت نفسه – دليلاً على حيوية التيار الروحي الذي يسري عبر مسيرة تطور الحياة الروحية العربية بشكل عام.. ولعله من قبيل العزاء وتسلية النفس ان نترحم على زمان كان أسلافنا يسجلون اعتزازهم "بالمدنية الإسلامية السمحة" التي كانت تأذن لأمثال ابن الراوندي، وزكريا الرازي، وابن المقفع بأن يتجرأوا على العقائد بينما كانت ساكنة هادئة تؤلف الكتب ردًا عليهم ودحضًا لمزاعمهم.

إن أزمتنا بحق هي بعث تلك الحضارة التي كانت ذات يوم أرضا خصبة تترعرع في أحضانها جميع الأصوات ومختلف الاتجاهات.

ثم ما أدرانا أن محمد عابد الجابري الذي يتنفس كأبناء عصره مناخا خانقا قد فاض به الكيل، وصرخ صرخة مكلوم، فكتب عن هذه القضية الخلافية (تحريف بعض نصوص القرآن) عله يوقظ النيام ويحث على الفكر الحر ويطرح التاريخ والتاريخ المضاد لينفي تلك الأحادية التي لطالما عانى منها الوعي العربي عبر أحقابه الزمانية المترامية بهدف بعث الصوت الآخر من جديد. وإنهاء الواقع العربي الذي ركدت مياهه أو كادت، والدليل على ذلك أنه لا يفتأ منذ قرن ونصف القرن يصوغ الأسئلة ويقدم عنها الأجوبة ذاتها... بمعنى آخر: لعل الجابري أراد أن يفعل فينا ما سبق أن فعله طه حسين في أبناء جيله عندما هبط على رؤوسهم بكتابه الشهير في "الشعر الجاهلي" ثم أليس من حقه أن

يشعر بالضجر من هذا الواقع العربي المعاش الذي بات (استاتيكيا) لا تتحرك فيه شعرة إلا بشق الأنفس، ألم نكن نشكو لأنفسنا – قبل فترة – حال مثقفينا الذين يضعون أيديهم في مياه باردة. فلا هم يشعرون بالركود الذي خيم على حياتنا، وأطفأ جذوة الحماس في داخلنا، ولا هم ينتقدون ما يرونه من أحوال وأوضاع، وباتوا وكأنهم شيء زائد على الحاجة، وعندما يكسر عابد الجابري هذه الشرنقة التي تغلف حياة أصحاب الفكر والقلم، نثور يااللعجب ونقيم عليه الحد!

أقول ما سبق أن قاله عابد الجابري نفسه في مناظراته الشهيرة مع الدكتور حسن حنفي من أن حوار المفكرين سابق لحوار السياسيين، فإذا كنا نريد لحياتنا تغييرا ولأوضاعنا إصلاحا فليس أقل من أن نطلق العقول من إسارها، ونقترب من كل القضايا نعالجها، ونسبر أغوارها بمنهجية من يريد، تنقية الأجواء، وتقويم المعوّج ونكف عن التحرش بالمفكرين (مشاعل الأمة). وعلينا أن ندرك قبل فوات الأوان أن "خنق الفكر" محسوب علينا، وقرينة يدفع بها أعداء العرب والمسلمين للتدليل على أننا فوضويون وهمج لا نقيم وزنا لفكر أو عقل..

• باختصار إن التساؤل عن توقيت تفجير الجابري لهذه القضية ليس بذي جدوى، فالمفكر يطرح ما يشاء ويناقش ما يريد بعقلانية ونزاهة وحيادية، وإذا كان لابد من طرح علامة استفهام فهي هل من حق الجابري (ورفاقه من الليبراليين) أن يفكروا في حرية ودون قيود. أم أن التفكير أصبح محرما، ومجرما ومحاصرًا بالاتهامات؟!

ملاحـــق

(١) صراع خليجى حاد.

(٢) فاروق حسني مدير لليونسكو.. افرح يا قلبى!

(٣) أخوان "الحقد" وخلان "التآمر" على مصر.

صراع خليجي حاد لانتزاع الدور الثقافي

تتطاول "الجزيرة" ضد السعودية، فترد المملكة بتأسيس حزمة فضائيات للردع، تظهر صحيفة في البحرين فترد الكويت بالستة، تعلن الدوحة عن مجلة ثقافية جديدة وجائزة قيمتها ثلاثة أضعاف نوبل فترد الإمارات بإعلان أضخم جائزة أدبية في العالم تزيد جوائزها على ٧ ملايين درهم.. فماذا يحدث في الخليج؟، وما هو سر الرغبة العارمة في هذا التنافس المحموم على دور ثقافي وإعلامي واضح؟، وأين موقع مصر من كل هذا؟، ومن يدفع للزمار حسب تعبير الكاتبة الإنجليزية فرانسيس ستونر سوندرز في كتابها المهم "الحرب الباردة الثقافية"..

الأسئلة أكبر مما نعد بالإجابة عنه في تقرير صحفي، لكننا سنحاول معا أن نقترب من تمهيد الأرض للتعرف على الأجوبة الصحيحة..

في ظل دعاوي الإصلاح السياسي التي تجتاح المنطقة وتهدد هويتها بمظلة "الشرق الأوسط الكبير" تارة، وبالتدخلات السياسية

والعسكرية من العراق شمالا إلى دارفور جنوبا، بدأت خريطة الثقافة في المنطقة العربية وكأنها ساحة للتنافس على الريادة، بعد أن تراجع الـدور الثقافي المصري في السنوات الأخيرة، بسبب إغلاق العديد من المجلات الثقافية الكبرى، واستغراق معظـم المثقفـين في قـضايا محليـة، ودخـول الدول النفطية بأموالها إلى لعبة استقطاب المثقفين بالجوائز المغرية ماليـا. والمؤتمرات السخية، والاستكتابات المجزية من حيث العائد..

وقد ساعد على ذلك عوامل عديدة تضافر فيها الداخل والخـارج، بحيث تحولت إلى نكتة، تلك المقولة الشهيرة التي كانت تقول "القـاهرة تكتب، وبيروت تطبع، وبغداد تقرأ"، فالقاهرة الآن منهمكـة في قـضايا آنية ذات طابع سياسي أو اقتصادي مباشر يتعلق بملفات قتلـت بحثـا، وتلعب فيها الصحافة والكتابات الانطباعية السريعة دورًا أكبر مما تلعبه الثقافة ويلعبه العقل البحثي المفكر، وبيروت تجاهد من أجـل أن تقـف على قدميها تحت وطأة صراعات سياسية مخيفة تهددها بحرب طائفية في الداخل، وفي حصار ما بعد الحرب على الحـدود، وبغـداد تتلظـى تحـت نيران القتل اليومي..

وفي ظل ذلك الانهماك في الداخل بدت الساحة مهيأة لدول الخليج لتتقدم بخطوات وتتنافس فيما بينها بغية انتزاع نقـاط ترشـيحها لريـادة ثقافية مؤثرة، فالكويت التي تولت الراية بعد سقوط بيروت في مستنقع الحرب الأهلية طوال ١٥ عامًا في الـسبعينيات والثمانينيـات، تعرضـت هي نفسها في التسعينيات لانتكاسة قومية بعد دخول القـوات العراقيـة

أراضيها، وخرجت من صدمة الغزو بتشكك كبير في الدور القومي، وعلى الرغم من أنها لم تغلق مجلة "العربي" الشهيرة التي تأسست في مجد الوحدة المصرية السورية، إلا أن المجلة نفسها افتقدت الحس القومي القديم، وباتت معبرة عن حالة التشكك في مشروع "الوصال العربي"، وصاحب ذلك خفوت مشروع مجلة عالم الفكر وبروتوكولية صدور سلسلة كتاب "عالم المعرفة" وانطفاء سلسلة المسرح العالمي، وانكفاء مجلة "فنون" على الحدود الخليجية.. وهكذا.

لكن الحالة الكويتية لم تستمر على ذلك خاصة في ظل تنامي الدور الثقافي والإعلامي لجيرانها الخليجيات فالإمارات تقدم عددا بارزا من المجلات الثقافية منها "المجمع" و "القافلة" و "تراث وفنون" و "أوراق" و "المنتدى" و "الرولة" وشئون أدبية" و "التشكيل" و "سينما" و "ثقافة وفن" ومجلة "شعر" و "مزون" و "الرافد" كما تقدم عددا من الجوائز الكبرى أشهرها جائزة العويس، ثم جائزة الصحافة العربية، وجائزة الشارقة للإبداع، وأخيرا أطلقت إمارة أبو ظبي جائزة الشيخ زايد للكتاب بقيمة إجمالية تصل إلى ٧ ملايين درهم، لتكون بذلك الجائزة الأضخم على مستوى العالم في هذا المجال قبل ذلك كانت سلطنة عمان أسهمت بدلوها في الحقل الثقافي وأثبتت وجودها من خلال أكثر من فعالية أبرزها كانت مجلة "نزوي"، ولم تكتف قطر بالهالة الإعلامية التي حققتها لها قناة "الجزيرة"، فأعلنت إصدار مجلة "الدوحة الثقافية" بتعد موافقة من مجلس الوزراء على اقتراح رئيس

المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث إلى جانب جائزة الرواية وقيمتها ثلاثة ملايين دولار، وانتعشت حركة إصدار الصحف في الكويت بعد قانون جديد فعلام، ونفس الحال في مملكة البحرين، في حين تواصل السعودية دورها في تقوية مركزها الإعلامي لتظل محتفظة بمركز الثقل في الخليج بعد ثورة الفضائيات والصحف التي سارعت دول الخليج في امتلاكها، حتى اليمن نص البرنامج العام للحكومة على ضرورة تنشيط حركة الطباعة والنشر وتحقيق المخطوطات، والاهتمام بطباعة الكتاب ونشره وإصدار المجلات الثقافية والعناية يكتب ومجلات الأطفال والاهتمام بالأدباء والمبدعين ورعايتهم وتشجيع مساهمة المرأة في الحياة الثقافة والعناية بالترجمة وتشجيعها، والاهتمام بالفنون والمسرح والسينما وإقامة مهرجانات متخصصة للفنون و المسرح والعناية بالتراث الشعبي والفنون الشعبية والعمل على حفظ التراث الشفهي الذي يشكل الذاكرة المخزونة للشعب، ووضع سجل وطني للآثار اليمنية.

المثير أن تقريرا حديثا لمنظمة اليونسكو يكشف خيبتنا العربية فيقول أن ما تطبعه دور النشر العربية مجتمعة لا يصل إلى نصف ما تنشره إسرائيل، ويقول التقرير أيضا إن كل ٣٠٠ ألف عربي يقرءون كتابا واحدا في العام، وقال الشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازي منذ فترة في سلسلة مقالات نشرها في "الأهرام" أنه لا يوجد في النصف الثاني من القرن العشرين إبداع ثقافي مصري يستحق البقاء تستوي في

ذلك الرواية والشعر والنقد بالسينما والمسرح والموسيقى، ثم عاد وتدارك ما قال على سبيل وجود استثناءات تمثلت في روايات وأفلام وموسيقى ولوحات، بل وحركة واسعة لنشر الكتاب المدعوم تمثلها مكتبة الأسرة وللترجمة يمثلها المشروع القومي للترجمة فضلا عن الاهتمام بإعادة نشر الموسوعات، وأشاد حجازي بمجلات الزمن القديم مثل الرسالة والقصة والكاتب، لكن صلاح عيسى رد قائلا أن معظم المجلات المهمة التي ذكر عناوينها – ومنها الرسالة والثقافة والرواية و "الكاتب المصري" و "مجلتي" و "القصة" و "قصص الشهر" و "النديم القصصي" و "روايات الأسبوع" كانت مجلات للتسلية تترجم قصصا بوليسية وعاطفية وجنسية، ولو أننا أخذنا بالتعريف الواسع للثقافة، لاكتشف حجازي أن هناك عشرات المطبوعات الثقافية الدورية لا تزال تصدر على الآن، سواء عن دور الصحف القومية، أو عن هيئات وزارة الثقافة، تشمل مجلات وسلاسل من الكتب لا حصر لها في كل المجالات من الرواية إلى الشعر ومن السينما على المسرح على مجلات الأطفال ومن السياسة الدولية إلى الدراسات الاجتماعية والإعلامية والطبية والسكانية والدينية، ووصل التخصص الدقيق إلى الحد الذي أصبح فيه لدينا – في الوطن العربي – مجلات للتراث والنقد الأدبي والكمبيوتر والتاريخ والبيئة والفكر السياسي والاجتماعي، بل إن مركز الدارسات الإستراتيجية في مؤسسة الأهرام يصدر وحده خمس مطبوعات شهرية، واثنتين ربع سنوية، منها مجلة متخصصة في الديمقراطية!

وكان لابد أن يقود القياس، على الزمن الـذي مـضي، حجـازي إلى مقارنة خاطئة فقد أخذت مجلة مثل الرسالة التي أصـدرها أحمـد حـسن الزيات في الثلاثينيات مكانتها وتأثيرها لأسباب كثيرة كان في مقـدمتها أنها كانت تكاد تنفرد مع مجلة الهلال – بسوق القراءة العربية ولا تـصل فقط إلى البلاد التي تقع بين الخليج والمحيط، بل وتوزع كـذلك في بـلاد مثل الملايو والفلبين وإندونيسيا.. في وقت كانت الصحافة العربية غـير المصرية لا تزال في سنوات طفولتها الأولى.. وظل هـذا التـأثير يتراجـع سنة بعد أخرى، مع صدور مطبوعات ثقافية تتبنى رؤية جديدة ومختلفة في الثقافة المصرية مثل الكاتب المصري والفجـر الجديـد والغـد – التـي سقطت من إحصاء حجازي عـلى الـرغم مـن دورهـا البـالغ الأهميـة، وبصدور مجلات أدبية وثقافية في الأقطار العربيـة تـشبع حالـة مثقفيهـا ومبدعيها في التواصل.

الحديث عن مجلة ثقافية تخترق الحدود ويقرأها العرب من المحـيط إلى الخليج أصبح حلما بعيد المنال، بحكم الواقع، في كل قطر عـربي الآن وزارة أو مجلس للثقافة، يـصدر عـددا مـن الـدوريات الثقافيـة العامـة والمتخصصة، فضلا عما تصدره دور النشر الخاصة والجمعيات الثقافيـة والجامعات، وهو ما يتطلب أن نعيد النظر في رؤيتنا لدور مصر العـربي، صـحيح أن مـصر لاتـزال –وسـتظل–تلعـب دورا مركزيـا في حـاضر ومستقبل أمتها، ولكننا في حاجة إلى نظرة تتعامل مع واقع جديد، قـضي بأن تنهض بقية أجزاء الأمة لتتعدد بالتالي مراكز الإبداع والثقافـة فيهـا،

وهم ما يفرض علينا أن تسعى لأشكال من التعاون والتكامل بين هـذه المراكز، بما يحقق وحدة الثقافة العربية من خلال الاعتراف بحق التنوع!

وهو أمر يؤكده شاعر إقليمي معروف هو إسـماعيل عقـاب الـذي يقول: لا نستطيع أن ننكر ما قامت به المجلات الأدبيـة والثقافيـة عامـة مـن دور تنـويري في النـصف الأول مـن القـرن المـاضي، وكـذلك في السبعينات وما بعدها حيث ظلت مصر صاحبه الدور الكبير في إصدار المجلات الأدبية والثقافية المهمة مثـل إبـداع القـاهرة الثقافـة الجديـدة، الشعر، أدب ونقد ملحق الزهور، فصول، مجلة المسرح على جانب ذلك أخبار الأدب كصحيفة أسـبوعية، هـذا وإلى جوارهـا دوريـات عربيـة أخرى مهمة منها مجلة العربي الكويتية وكتابها الدوري، ومجلـة الفيـصل السعودية وغيرها، لكن الآن الوضع يتغير بسرعة بعد ظهور العديد من المجلات الأدبية في منطقة الخليج ونظرا للعائد الكبير الذي تقدمه هـذه المجلات مقارنة بالمجلات المـصرية فقـد اهـتم الكتـاب المـصريون بـما يكتبونه للمجلات العربية، ولم نعد نقرأ لهؤلاء في المجـلات المـصرية إلا نادرًا، في الوقت ذاته انخفـض التوزيـع وتوقـف الـدعم الـذي تقدمـه الدولة لـبعض المجـلات المـصرية التـي توقـف بعـضها عـن الـصدور وانحسر قراؤها إلى فئة بسيطة، وهـو مـا يـراه الناقـد الأدبي د. مـدحت الجيار تراجعا واضحا لأن المجـلات الثقافيـة أصـبحت بالفعـل –كـما وكيفا– لا تتناسب مع الواقـع الثقـافي العـربي، وأعتقـد أن هنـاك عـدة أسباب أدت على حدوث هذه الظاهرة تتلخص في البحـث عـن الـربح

المباشر الذي هو الدافع الطبيعي وراء إصدارها، كما أن التناقص الحاد في معدلات القراءة واتجاه الأجيال الجديدة إلى نوع آخر من مصادر المعرفة أوجد أزمة حقيقية في توزيع هذه الدوريات الثقافية، إلى جانب وجود فجوة بين من يكتب ومن يتلقى لذلك لابد من إعادة الاعتبار للقارئ مرة أخرى والدخول في نسيج أحلامه وآماله فيما يكتب إبداعا وفكرًا وأعتقد أن كل تلك الأسباب مجتمعة قد شكلت نوعًا من النسيج العنكبوتي الذي أدى إلى انهيار هذه الدوريات.

ولعل التصريح الأخير الذي أكد فيه الراحل الدكتور ناصر الأنصاري رئيس الهيئة العامة للكتاب عزمه على إعادة إصدار مجلة "إبداع" يكون الخطوة الأولى لإعادة الثقافة المصرية إلى مكانها الطبيعي وقيامها بالدور الذي لن يستطيع سواها في المنطقة أن يقوم به(*).

(*) إيهاب كامل.

فاروق حسني مديراً لليونسكو.. افرح يا قلبي!

نشرت الصحف عن لجنة تم تشكيلها من أجل الإعداد للحملة الانتخابية الخاصة بترشيح فاروق حسني وزير الثقافة لتولي منصب مدير عام منظمة اليونسكو الدولية اعتبارًا من يناير ٢٠٠٩.

ومن المعروف أن اليونسكو يرأسها الياباني "كويشيرو ماتسورا" منذ أول عام ٢٠٠٣ وقد اعتلى قمة المنظمة الدولية بعد أن فاز على ١١ مشرحًا أشهرهم غازي القصيبي الشاعر والدبلوماسي السعودي المعروف، فضلاً عن إسماعيل سراج الدين رئيس مكتبة الإسكندرية. وقد أسفرت الانتخابات كما نعرف عن فوز ماتسورا في الجولة النهائية بـ٣٤ صوتًا وحصول المرشح السعودي على ١٣ صوتًا والمصري إسماعيل سراج الدين على ٣ أصوات من ٥٨ هم عدد أعضاء المجلس التنفيذي للمنظمة الذي ينقسم كالتالي:

المجموعة الآسيوية ولها ١٢ صوتًا، والمجموعة الأفريقية ولها ١٤ صوتًا، والمجموعة الأوروبية ولها ١٦ صوتًا، ومجموعة أمريكا اللاتينية ولها ١٠ أصوات، والمجموعة العربية ولها ٦ أصوات. وهذا يوضح بجلاء أن المرشح المصري لم تسانده الأصوات العربية أو الأفريقية أو الآسيوية فضلاً عن أصوات أوروبا وأمريكا اللاتينية. ويصعب طبعا أن نتحمس للحجة القائلة بأن الدكتور إسماعيل سراج الدين لم يوفق بسبب أنه لم يكن المرشح الرسمي لمصر، وإنما تمت تزكيته بواسطة بوركينا فاسو! ولا نظن أبدا أن ترشيح مصر الرسمي له كان يمكن أن يفيده. ما يحملنا على هذا الاعتقاد هو أنه بعد عدة شهور من هذه الانتخابات كنا على موعد مع القدر وترشيح آخر تبنته مصر رسميًا هذه المرة من أجل الفوز بتنظيم مونديال كرة القدم عام ٢٠١٠/ وجاءت النتيجة مزلزلة: ١٤ صوتًا لجنوب أفريقيا التي فازت بشرف تنظيم البطولة وعشرة أصوات للمغرب المنافس المحترم.. أما مصر أم الدنيا فلم ينتخبها أحد من ٢٤ دولة بينهم أشقاء عربا وأبناء عمومة أفارقة ورفاق كفاح آسيويون.

كل هذا قصدت أن أسرده ليس من أجل تثبيط الهمم والنيل من العزائم، ولكن حتى لا نغرق في بحار الأوهام التي أدمنا السباحة فيها.. وهذه الانتخابات للأسف لن تديرها وزارة الداخلية وليس بين المرشحين فيها من يرتدي الطربوش ويدعو لانتخاب فاروق حسني المرشح المنافس.. ومع هذا فأنا أتمنى للجنة التي تضم أسماء محترمة أن

يكلل جهدها بالنجاح، وللوزير الطموح أن يتحقق حلمه بالفوز بالمنصب الدولي الكبير.

غير أنني أحمل رجاءً حارًا بمصر الأمر في إطاره الطبيعي، أي باعتباره خطوة وظيفية في مسيرة فاروق حسني لا تخص شعب مصر ولا تهمه في شيء، فلا تصدعوا رؤوسنا بالحديث عن الشرف العظيم الذي ينتظر مصر والمجد الذي سنحققه والأيام الوردية التي سنعيشها بعد أن يصعد ابن لنا إلى قمة المنظمة الدولية، فلقد جربنا هذا من قبل ولم يتحقق لنا أي شيء إيجابي. جربناه عندما صعد بطرس غالي بضغط فرنسي وموافقة أمريكية إلى منصب الأمين العام للأمم المتحدة من ٩٢ إلى ٩٦ فلا أعاد لنا حقًا ضائعًا ولا حرر لنا مترًا واحدًا من الأرض العربية المحتلة ولا نجح في حمل إسرائيل على تنفيذ قرار واحد من قرارات الأمم المتحدة، كل ما نذكره له أنه فرض على ليبيا حصارا ظالمًا امتد سبع سنوات وشاركت فيه مصر استجابة للشرعية الدولية! إذن هذه المناصب لا تعني شيئًا بالنسبة لنا، إنما تعني الكثير بالنسبة لصاحبها ومعه أسرته وأصدقاؤه، وهذا حقه.. لكن هذا كل ما في الأمر. وإذا أردتم المزيد من الأمثلة فلابد أنكم تعلمون أن إبراهيم نافع هو رئيس اتحاد الصحفيين العرب، فهل هذا يعني أي شيء بالنسبة للصحفيين المصريين؟ هل يعني أي شيء للمواطن المصري الذي يحمل جركنه منذ الصباح بحثًا عن الماء؟.. والدكتور فتحي سرور أيضًا هو رئيس برلمانات العالم (سابقا). فهل يساعد هذا على تقديم استجواب يسقط

الحكومة أو على أداء أفضل لبرلماننا، أو حتى على ملء صحون المصريين بالفول؟ إن الأمر في حقيقته أن بعض المناصب لا قيمة له، والبعض الآخر من المناصب له أهمية كبرى، لكن الغرب يسيطر عليها ويوظفها لصالح أهدافه سواء كان شاغلها أوروبيا أو من مصر أو بورما أو غانا، وهذا ينطبق على منصب الأمين العام للأمم المتحدة الذي تختاره أمريكا كما ينطبق على منصب مدير عام اليونسكو الذي تختاره أوروبا(*).

(*) أسامة غريب.

إخوان «الحقد» وخلان «التآمر» على مصر!

.. يذكر المفكر الجزائري المعروف (محمد أركون) لحظتين مصريتين الأولى يحمل التقدير لها، والثانية يحمل عليها. أما الأولى فهي مؤلفات محمود عباس العقاد التي كان يتم تسريبها إلى الجزائر لكي يقرأها الثوار (وخصوصًا المؤلفات الدينية).. ويقول كان العقاد يوقظ فيهم العقيدة الدينية (الإسلامية) التي دأب الاستعمار الفرنسي على طمس ملامحها في إطار خطته الثقافية التي كانت تهدف إلى تذويب الشخصية الإسلامية للشعب الجزائري..

ولذلك كان الاستعمار الفرنسي يُعاقب كل من يتم ضبط سلسلة العبقريات أو الدراسات الإسلامية الأخرى التي وضعها العقاد.. ويضيف أركون هذه اللحظة الفكرية (المصرية) ساهمت في ربط الشعب الجزائري بأصوله الدينية، كما كرست صلات (العروبة،

والقومية) داخل الجسد الجزائري، فكأن مصر كانت (حائط الصد) الذي حمى الجزائر من مؤامرة الاستعمار الفرنسي الذي كان يزعم أن الجزائر (امتداد) لفرنسا على شاطئ المتوسط (الجنوبي).

.. أما اللحظة الثانية التي يحمل عليها البروفيسور أركون فهي اللحظة التي امتد فيها فكر (الأخوان) إلى الجزائر.. وهو فكر أحادي ومنغلق وأناني، ولا هدف له سوى الوثوب إلى مقاعد السلطة.

ويؤكد أركون أن جذور الفكر المتطرف للجماعة الإسلامية المسلمة تعود إلى الفكر (الأخواني).. وكأن الأخوان يتحملون مسئولية (حالة الإرهاب والعنف) التي يكتوي بنارها الشعب الجزائري طوال العقدين الأخيرين.

ومما أذكره أن أركون كان يتحدث في غضب عن الفترة التي أمضاها نفر من الإسلاميين المصريين وعلى رأسهم (الشيخ محمد الغزالي) الذي سلمته القيادة السياسية عقول وقلوب الشعب الجزائري ليعبث فيهما كما يشاء.. وقد ظل على هذا الحال سنوات عديدة ولذلك جاءت الثمار (فجة).. وهي تلك التي نجنيها اليوم.

ويقول أركون في حزن لقد شاءت أقدارنا أن تفيء مصر (الشقيقة الكبرى) علينا بأمرين أولهما حلو وثانيهما مرّ.. وخطورة هذا الشيء الثاني أنه مُستمر حتى اليوم، ويبدو أنه سيبقى طويلاً لأن شبكات الأخوان تدعمه، وتتواصل معه بكافة السبل!

• ما يقوله محمد أركون بشأن هاتين اللحظتين المصريتين في حياة الجزائر يكاد يتشابه مع ما يراه مفكرون آخرون فيما يتعلق بتأثير مصر فكريا وثقافيا على شقيقاتها القريبات خصوصًا في هذه المرحلة التي تكشف فيها الجماعة المحظورة – دون خجل – عن أنيابها التي تزيد أن تفترس بها الصغير قبل الكبير بدعوى (الإسلام هو الحل..).

ويعتمد الفكر الأخواني أو بالأحرى الخبث الأخواني على أن أحدًا ليس بوسعه أن يرفض أن يكون الإسلام هو الحل لطاقة قضايانا الدنيوية.. لكن التسليم بذلك يعني أننا نعترف بأننا أمة نعيش بلا "دين".. وهو أمر غير صحيح، فالشعب المصري دون سائر الشعوب، تلعب العقيدة الدينية دورًا غائرًا وعميقًا في حياته حتى في زمن الفراعنة التي لم يكن إنشاء إحدى معجزات الدنيا (الأهرامات) سوى تجسيدا حقيقيًا لعقيدة البعث والنشور والجزاء والعقاب، والحياة الآخرة.. وهي مفردات لم تبعد كثيرا عن المعاني الإسلامية الخاصة بالحياة بعد الموت.

.. ثم يطرح هذا الشعار سؤالا مهما.. لئن كان الإسلام هو الحل، فأي إسلام يريد الأخوان.. هل هو ذلك الدين الذي يفرضونه فرضا على البشر أجمعين، من منظور رؤيتهم فقط. بمعنى هل من حقهم أن يضعوا تصورًا للإسلام لا يكون مسلمًا من يرى تصورًا آخر غيره..

.. وهل من حقهم أن يجتهدوا ثم يحرموا الآخرين من الاجتهاد.. ثم كيف يستقيم ذلك مع القاعدة التي تقول إن الاجتهاد فريضة

إسلامية؟.. أم أن الأخوان يريدون اختزال الإسلام (هذا الدين الحنيف) في الأخوان وكفى؟!

.. يبدو –للأسف– أن الأمر كذلك. فعندما قتل الأخوان النقراشي باشا رئيس وزراء مصر في مرحلة ما قبل الثورة، إنما كان لاختلافهم حول مفهوم الإسلام.. ويذكر الجميع أن عباس العقاد حمل حملة شعواء على الأخوان في ذلك الوقت، وقال: نحن لنا عقول مثلما أن للإخوان عقولاً. وإذا كان من حقهم الاجتهاد، فلنا أيضا نفس الحق!

.. وهذا معناه أن أزمة الأخوان تكمن في داخلهم.. فهم يرون أنهم –وحدهم– المسلمون، وما عداهم فليسوا بمسلمين على الإطلاق.

وعندما يرفعون شعار الإسلام هو الحل، فكأنما يتعين على العالم – كل العالم– أن يسلم لهم بالقيادة ثم ينخرط كالقطيع، ينفذ التعليمات التي تصدر إليه..

• ولعل هذه الرؤية الضيقة التي يتعامل الأخوان – من خلالها – مع البشر هي التي أقنعتهم بأنهم قوم أعلى وأغلى من البشر.. ولم لا، أليسوا هم الذين نيطت بهم – ولست أدري كيف؟! – مهمة إنقاذ البشرية من الجاهلية الحديثة التي نحياها – من وجهة نظرهم– وهم بذلك يريدون القول: إن السلف الصالح والصحابة المكرمين – ومن قبلهم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، كانت مهمتهم إنقاذ البشرية من الجاهلية القديمة.. وها هم اليوم يواصلون المسيرة، ولذلك كان عليهم إنقاذ العالم من جاهلية البشرية من الجاهلية القديمة.. وها

هم اليوم يواصلون المسيرة، ولذلك كان عليهم إنقاذ العالم من جاهلية (القرن العشرين، الحادي والعشرين).

• مشكلة الجماعة المحظورة هي أنها تتعامل مع شعب مصر (بكافة أطيافه وشرائحه، وبعلمائه، ومفكريه، ومثقفيه) وكأنه مجموعة من الصبية أو الصغار الذين لم يبلغوا بعد سن الرشد.. وبالتالي يتعين قيادتهم إلى حيث يريدون.

.. وهي –لعمري– نظرة خاطئة ليس فقط لأنها فجة، ومعيبة، وعارية عن الصواب ولكن أيضًا لأنها تفضح سيناريو الوثوب للسلطة الذي تدغدغه مشاعر وحواس الأخوان منذ زمن..

ومرة أخرى نؤكد أن للإخوان (مخطط) لا يقل خطورة عن مخطط الموساد الإسرائيلي، ومخطط تنظيم القاعدة. فالطموح المشترك هو طموح سياسي بالدرجة الأولى، والأداة هي أكاذيب وألاعيب لا تنطلي على عاقل.. والأخوان وغيرهم ينتهزون غياب التوعية السياسية لدى الشباب ويريدون قطع الطريق على الأصوات العاقلة التي تدعو أطياف الأمة إلى المشاركة السياسية في الإصلاح، والتعديلات ورسم صورة مشرقة لمصر (غدا وبعد غد).. لكن هيهات أن يتحقق لهم ذلك(*).

(*) د. سعيد اللاوندى.

خاتمة

.. إن سلسلة الخسائر لا تنتهي.. والسبب أننا نتبع دوليا أسلوب الفهلوة الذي لم يعد يجدي حتى مصر...

خسرنا منصب رئيس قسم الدراسات الإسلامية في كليات الحقوق الفرنسية وكان آخر مصري هو الدكتور الشقنقيري!

وخسرنا منصب مدير معهد العالم العربي لإصرار مصر على ترشيح أحد السفراء.. وليس المثقفين.. ! وضاع على بلد طه حسين هذا المنصب ليحل محله المغربي محمد بنونة أستاذ الأدب العربي في جامعة محمد الخامس..

وكان طبيعيًا أن يضيع منصب أمين عام اليونسكو.. لأن أسلوب الفهلوة الذي اتبعه فاروق حسني ومساعدوه كان المقدمة الطبيعية لهذا

الفشل الذي جرح المواطن المصري العادي في قلبه ووجدانـه وفي جيبـه أيضًا.

أن العقل المصري يتعرض لمحنة شديدة.. شارك فيهـا مـصريون – للأسف الشديد.. أنفقوا بقلب قاس حصاد مدخرات الشعب المـصري والنتيجة كما قال المخلوع لوزير ثقافته ارم وراء ظهرك! أي لا شيء يهم! فأضاعوا مصر وثقافتها.. فانطفأت جذوتها التي كانت!

الفهرس

النص	الصفحة
• مقدمة	٥
• فصل أول: القوة الناعمة المصرية.. المفقودة!	٩
• فصل ثان: تهافت المثقفين	٦٩
• فاصل ثالث: فاروق حسني.. وفضيحة الترشيح لليونسكو	١٠٩

ملاحق

• (١) صراع خليجي حاد..	١٥٧
• (٢) فاروق حسني مديرًا عامًا لليونسكو.. افرح يا قلبي	١٦٥
• (٣) أخوان: "الحقد" وخلان "التآمر" على مصر.	١٦٩
• خاتمة	١٧٥